لمحات من تاريخ الأندلس

إعداد

أسامة عبد الرحمن

مؤسسة دار الفرسان

للنشر والتوزيع

51 ش إبراهيم خليل – المطرية

اسم الكتاب :لمحات من تاريخ
الأندلس
المؤلـــف : أسامة عبد الرحمن
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: فرى برنت-
رقم الإيداع : 10354
طبعة أولى : 2017

فهرسة أثناء النشر

عبد الرحمن ، أسامة

لمحات من تاريخ الأندلس / أسامة عبد الرحمن – القاهرة.– ط1 مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع

160 ص ؛ 24 سم

تدمك : 978-977-6169-88-3

1 – العالم الإسلامى – تاريخ – أسبانيا

أ. العنوان 946

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن
يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا)

صدق الله العظيم

طه 114

مقدمة

فتحت الأندلس على يد المسلمين سنة اثنتين وتسعين للهجرة، وانتشر الإسلام فيها بشكل كبير بعد فتحها، وأصبحت من أهم الدول الإسلامية في ذلك الوقت، وبقيت هذه الدولة لمدة لا تقل عن ثمانية قرون وبعد ذلك سقطت، لكن تميزت بوجود العلم والحضارة والجمال والرقي الذي ميزها عن غيرها من الدول، ووجد فيها جميع مقومات الحياة المريحة، فكانت تحتوي على الأرض الخصبة والمياه العذبة الوفيرة، والخضرة الرائعة التي كانت تكسوها، ومناخها المعتدل والمناسب في جميع الفصول، وقد تغنى بجمالها الكثير من الشعراء، ونظموا العديد من القصائد الخاصة بها.

كل ذلك النعيم والترف جعل أهلها يتراخون عن استكمال حمل راية الدعوة وكذلك أحقاد رجال الدول التى ساعدت هى والتراخى والنعيم الذى عز عليهم فراقه على تفكك الأندلس إلى 22 دويلة تناحرت وتعاون بعضها مع بعض الامارات المسيحية على بعض فحق عليهم قول الحق سبحانه فأمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا.

بعد حكم المسلمين وفي عام 1492 ميلادي سقطت الأندلس وأخرج منها المسلمون، وكانت غرناطة آخر مدينة إسلامية سقطت قام المسيحيون ببدء الهجوم على المناطق الإسلامية، مجبرين المسلمين إما على الرحيل أو اعتناق المسيحية، وتضييق الحصار على من بقي منهم بمنعهم من تكلم العربية أو ارتداء الملابس العربية أو قراءة الكتب العربية، وفي النهاية تم ترحيل جميع العرب ومصادرة ممتلكاتهم حتى لو كانوا ممن اعتنق المسيحية.

أسامة عبد الرحمن

الباب الأول

الوضع فى الأندلس قبل الفتح

الوضع فى الأندلس قبل الفتح الإسلامى

الفتح الإسلامي للأندلس

في بعض المصادر ذات الصبغة القومية خصوصا يعرف هذا الحدث باسم الفتح العربي للأندلس على الرغم من أن جيش المسلمين تضمن عربا وبربر بشكلٍ أساسيٍ وغيرهم من العرقيات الأقل عددا، كما يعرف في بعض المصادر العربية باسم الفتح الإسلامي لإسپانيا، وفي بعض المصادر الأجنبية بالفتح الإسلامي لهسپانيا، هو حملةٌ عسكرية بدأت سنة 92هـ الموافقة لسنة 711م قادها المسلمون تحت راية الدولة الأموية ضد مملكة القوط الغربيين المسيحية في هسپانيا، التي حكمت شبه جزيرة أيبيريا والتي عرفها المسلمون بإسم الأندلس، بجيشٍ معظمه من البربر بقيادة طارق بن زياد نل عام 711م في المنطقة التي ترف الآن ببل طارق، ثم توجه شمالا حيث هزم ملك القوط لذريق (رودريك) هزيمةٌ ساحقة في معركة وادي لكة. واستمرت حتى سنة 107هـ الموافقة لسنة 726م واستولت على مناطق واسعة من إسپانيا والپرتغال وجنوب فرنسا المعاصرة.

كان من أسباب فتح الأندلس إقبال البربر على اعتناق الإسلام بعد تمام فتح المغرب وتوقهم للغزو والجهاد في سبيل الله، وفي نفس الوقت شجع والي طنجة الرومي يليان المسلمين على مهاجمة الأندلس بسبب خلافٍ كبيرٍ وقع بينه وبين الملك لذريق بسبب اعتداء الأخير على ابنته واغتصابها عندما كانت تقيم في بلاطه، وفق ما تتفق عليه المصادر العربية والإسلامية، وكذلك لأن المسلمين رأوا توجيه جهود الفتح والغزو نحو بلادٍ حضريةٍ غنية تفيد الدولة الأموية وعموم المسلمين، بدل تحويله نحو الواحات والبلاد الصحراوية، ولرغبتهم في الاستمرار بنشر الإسلام في البلدان المجاورة. تم فتح الأندلس خلال فترةٍ قياسية نسبيا، واعترف المسلمون بعد خضوع شبه جزيرة أيبيريا بحقوق النصارى واليهود في إقامة شعائرهم الدينية نظير جزية سنوية، كما هو الحال مع سائر أهالي البلاد المفتوحة من المسيحيين واليهود، وأقبل معظم القوط على اعتناق الإسلام وامتزجوا مع الفاتحين الجدد، وانسحب قسم آخر منهم نحو الشمال الأيبيري الذي لم يخضع طويلا للمسلمين عاد قائدا الفتح موسى بن نصير وطارق بن زياد إلى عاصمة الخلافة دمشق بأمرٍ من الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة 96هـ الموافقة لسنة 714م حيث لم يمارسا أي عملٍ سياسيٍ أو عسكريٍ بعد ذلك لأسبابٍ اختلف فيها المؤرخون، ولف الغموض نهاية طارق بن زياد خصوصا حيث لم يعرف ما حل به بعيد وصوله إلى دمشق.

كان هذا الفتح بدايةٍ للتواجد الإسلامي في الأندلس الذي امتد لنحو **800** عام تقريبا، قضاها المسلمون في صراعٌ مع الإمارات والممالك المسيحية التي تكونت في الشمال في المناطق التي لم يغزوها المسلمون حتى سقوط مملكة غرناطة عام **897**هـ الموافق فيه **1492**م وخلال تلك الفترة أسس المسلمون حضارة عظيمة في بلاد الأندلس حتى اعتبرت منارة أوروبا خلال العصور الوسطى، وحصلت حراكات اجتماعية بارزة نتيجة هذا الفتح وتعدد الأعراق البشرية التي سكنت بلاد الأندلس، فتعربت بعض قبائل البربر وبعض القوط، وتبربرت بعض قبائل العرب، واختلط العرب والبربر والقوط وشكلوا مزيجا سكانيا فريدا من نوعه في العالم الإسلامي، وأقبل القوط الذين بقوا على المسيحية على تعلم اللغة العربية والتثقف بالثقافة الإسلامية مع حفاظهم على خصوصيتهم الدينية، فعرفوا بالمستعربين، وكتبوا لغتهم بالأحرف العربية التي عرفت باسم اللغة المستعربية.

أوضاع الأندلس قبيل الفتوحات الإسلامية

الوضع الجغرافي

تقع شبه جزيرة أيبيريا في جنوب غرب أوروبا على مثلثٍ من الأرض يضيق مع الاتجاه نحو الشرق، ويتسع غربا، مقابل السواحل الشمالية للمغرب الأقصى، حيث يفصل بينهما بحر الزقاق،وتتصل في الشمال بفرنسا بواسطة سلسلةٍ جبليةٍ تعرف بجبال البرتات أو البرانس أو البيرنيه، وهي جبالٌ تمتد من منطقة برشلونة في الشرق حتى مدينة بيونة في الغرب، وتتخللها شعابٌ ضيقة وممراتٌ وعرة أشهرها باب الشزري المعروف أيضا بممر الرونسڤال وباستثناء تلك الناحية فإن المياه تحيط بشبه الجزيرة من كل جانب، مما حدا بالجغرافيين المسلمين إلى وصفها بالجزيرة تجوزا، إذ يمتد البحر المتوسط على طول ساحليها الشرقي والجنوبي من السطوح الشرقية لجبال البرتات حتى مضيق جبل طارق، الذي يفصل شبه الجزيرة عن شمال أفريقيا بما لا يزيد عن اثني عشر ميلا، ويلتقي عنده البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي الذي يطوق شبه الجزيرة من ناحيتي الغرب والشمال، حتى الحد الغربي لجبال البرتات

حيث يعرف في هذه الناحية الشمالية بالبحر الكانتبري أو بخليج بسكاي، وبذلك تنعزل شبه الجزيرة عن جيرانها والواقع أن جبال البرتات تشكل سدا يحول دون اتصال أيبيريا وفرنسا، ومنطقة جبل طارق تجعل الاتصال مع المغرب أكثر سهولة ويسرا.

لذلك أضحت شبه جزيرة أيبيريا تقبل بوجهها على شمال أفريقيا وتولي ظهرها لأوروپا، وهذا ما أجمع عليه الجغرافيون المسلمون الذين عدوها امتدادا لأفريقيا، وليست رقعة من قارة أوروپا والمعروف أن شبه جزيرة أيبيريا تتشابه مع المغرب في كثير من المعالم النباتية والحيوانية خاصة منطقتي طنجة وسبتة وعلى الرغم من أن أيبيريا تتكون، في معظمها، من هضبةٍ كبيرةٍ تعرف بالمسيتا وهو ما يجعلها تبدو وكأنها وحدة جغرافية، إلا أن كثرة الجبال التي تمتد في معظمها من الشرق إلى الغرب، فضلا عن الأودية العميقة فيما بينها، قد فتتت هذه الوحدة، وأعاقت الاتصال بين الأجزاء المختلفة لشبه الجزيرة، فنشأت وحدات محلية تنفصل كلٌ منها عن الأخرى بحواجز طبيعية، مما أثر على الأوضاع السياسية.

ويلاحظ تنوع الخصائص الجغرافية لأيبيريا من تباين سطح الأرض، وتعدد الأقاليم المناخية، والغطاء النباتي، أدت هذه الأنماط المناخية إلى تنوع الحياة الزراعية.

الوضع السياسي

غيطشة ملك القوط ، شهد عهده عدة اضطرابات وقلاقل سياسية في البلاد الأيبيرية حيث كانت مملكة القوط الغربيين قائمة في شبه الجزيرة الأيبيرية منذ سنة 418م، عندما خلع الملك واليا ما بقي من الطاعة للرومان، وضرب النقود باسمه وفرض الضرائب على رعاياه من القوط والغاليين وفي الوقت الذي فتح فيه المسلمون بلاد المغرب، كانت المملكة القوطية في أيبيريا المقابلة تشهد تطورات سلبية متلاحقة أدت إلى انحلالها وضعفها وتجلت مظاهر الانحلال السياسي بين أفراد الطبقة الحاكمة، ذلك أن نظام الحكم القوطي كان ملكيا قائما على مبدأ الانتخاب، حيث يجتمع النبلاء ورجال الدين، بعد وفاة الملك، لاختيار خلفٍ له من بينهم وتأكد هذا المبدأ في مجمع طليطلة الرابع الذي انقعد في سنة 633م، وفي مجامع تالية، أهمها المجمع الثامن سنة 653م ونظرا لطبيعة التنظيم القبلي لمجتمع المملكة القوطية، حاول بعض الملوك الخروج على هذا المبدأ وجعل نظام الحكم وراثيا، مما أدى إلى إثارة التنافس بين الطامعين في العرش، حتى أضحى تاريخ الملكية القوطية،

في أواخر عهد المملكة، سلسلة من المؤامرات والاغتيالات والحروب الداخلية ولم يلبث هذا الصراع الداخلي أن دخل مرحلته الأخيرة في عهد الملك إخيكا، واستمر في عهد خلفائه، وأدى إلى ضعف المملكة وسقوطها بيسر في أيدي المسلمين فقد خرج إخيكا على قرارات المجامع المتعددة حين أشرك معه ابنه غيطشة في الحكم تمهيدا لتعيينه خلفا له، وأقدم في الوقت نفسه، على سمل عيني الدوق تيودوفريدو، مرشح المعارضة، فانسحب هذا من الحياة السياسية مع ابنه لذريق (رودريك).

توفي إخيكا في سنة 83هـ الموافقة لسنة 702م، فخلفه ابنه غيطشة متجاهلا مبدأ الانتخاب المتفق عليه، مما أثار حفيظة النبلاء ورجال الدين بدأ هذا الملك حياته السياسية بإصلاح أوضاع الدولة التي بلغت مرحلة خطيرة من الانهيار، فتقرب من المعارضة، وعين تيودوفريدو حاكما على مقاطعة بيتيكا، ومع ذلك لم يستطع أن يزيل الحقد من نفوس خصومه، كما ألب عليه النبلاء ورجال الدين عندما حاول أن يحد من نفوذهم ويقلص امتيازاتهم، ويخفف الضغط الاقتصادي عن اليهود؛ مما دفعهم إلى إعلان الثورة على حكمه، وحاكوا المؤامرات للتخلص منه، فاضطر إلى محاربتهم، حتى تقدمت به السن وعجز عن متابعة أعماله العسكرية

ومما زاد أوضاع البلاد تفاقما تدخل زوجة غيطشة في سياسة الدولة، إذ أقنعت زوجها بتعيين ابنه الصبي أخيلا خلفا له، مكررا ظروف اعتلائه السلطة، كما عينه حاكما على مقاطعتي طركونة وناربونة في الشمال وبفعل صغر سنه، عين عمه خشندس وصيا عليه.

آخر ملوك القوط في أيبيريا

تأزمت الأمور من جديد بعد وفاة غيطشة سنة 91هـ الموافقة لسنة 710م، لأن ابنه وخليفته أخيلا امتنع عن الذهاب إلى طليطلة لاستلام الحكم، وظل قابعا في مقر حكمه في الشمال، فاضطرت والدته إلى ملء الفراغ فأدارت الشئون العامة بمساعدة أخي زوجها المطران أرطباس (أوپاس)، لكن النبلاء ورجال الدين رفضوا تقديم الولاء لهذه الأسرة الحاكمة، وأعلنوا عدم الخضوع للصبي أخيلا، كما خشوا من استبداد الوصي بالحكم؛ فامتنعوا من طاعته، واستقل بعضهم في الأطراف والنواحي، وسادت الفوضى وعم الارتباك في البلاد واشتدت حركة التمرد في طليطلة، الأمر الذي دفع الأسرة الحاكمة إلى مغادرتها خوفا من بطش المعارضة، وفروا إلى مقاطعة جليقة في الشمال الغربي من البلاد، فخلت السلطة السياسية مجددا عندئذٍ اجتمع كبار النبلاء ورجال الدين واختاروا لذريق خليفة لغيطشة وواجه لذريق،

خلال حياته السياسية، عدة صعاب لم يتمكن من تجاوزها وأدت إلى نهاية مملكة القوط، فقد كان بحاجةٍ إلى المال للإنفاق على الحملات العسكرية وإخضاع الثورات التي اندلعت ضده في جهاتٍ عديدة، وعندما حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الموجودة في كنيستي القديس بدروس والقديس بولس في طليطلة، واجه معارضة من جانب رجال الدين، عندئذٍ لجأ إلى فرض مزيدٍ من الضرائب ومصادرة بعض ثروات الكنيسة كما واجه ملك القوط انقساماتٍ سياسيةٍ حادة، خاصة في الشمال، نتج عنها فتن وحركات عصيان، فقضى معظم أيام حكمه قصيرة الأمد ينتقل من جبهة إلى جبهةٍ أخرى لإخمادها، لذلك لم يشعر بالخطر القادم من الجنوب إلا بعد فوات الأوان ومما زاد الأمور تعقيدا هروب العبيد من الخدمة العسكرية، ويدل هذا على ضعف القوط المتجذر وعلى الحد الذي وصل إليه تدهور قوتهم والمعروف أن غالبية أفراد الجيش القوطي كانت، منذ أواخر القرن السابع الميلادي، تتألف من العبيد المجندين، لأن القوط ركنوا إلى حياة الدعة والترف، فهجروا مهنة الحرب التي فطروا عليها، وفقدوا صفاتهم العسكرية.

ولم يعودوا أولئك الغزاة الأشداء فتعرض لذريق أيضا لضغطٍ عسكريٍ من جانب خصمه أخيلا الذي عده مغتصبا للسلطة، فأعد جيشا كبيرا، بقيادة مستشاره ريكيسندو، ودفعه نحو الجنوب إلى طليطلة لخلعه واستعادة العرش، وعلى الرغم من انتصار لذريق فإن هذا النصر كان قصير الأمد، فضلا عما تلاه من ازدياد الفوضى في البلاد كما ظهر حزبان كبيران متعارضان في توجهاتهما وأهدافهما انقسم بينهما أهالي البلاد، الأمر الذي وضع المملكة في جوٍ مشحونٍ قابلٍ للانفجار في أي وقت.

الوضع الاقتصادي

كان الوضع الاقتصادي في الأندلس قبيل الفتح الإسلامي شبيها إلى حدٍ كبير بالوضع الذي كان سائدا خلال العهد الروماني؛ فالأرستقراطية الرومانية ظلت على أشكالها من الغنى والتمييز والطبقية واستغلال التجار والمزارعين البسطاء، فألتف الأعيان مع الحكام القوط، وساء أمر العامة نتيجة تراكم الضرائب والأتاوات، ونقص الأمن بمختلف أوجهه. ووصف الهيكل الاقتصادي للمملكة بأنه ربما كان الأقرب إلى المنظومة الرومانية من غيرها من هياكل الممالك الأوروبية الغربية التي كانت قائمة آنذاك ولما تولى لذريق عرش القوط تابع سياسة أسلافه التقليدية في جمع المال، فأرهق البلاد والعباد بالضرائب الفادحة حتى عم الفقر على الرغم من غنى البلاد بالموارد الاقتصادية.

الوضع الاجتماعي

وجدت في المجتمع الأيبيري قبيل الفتح الإسلامي عدة طبقات اجتماعية كان أهمها:

طبقة النبلاء: وهم الأمراء القوط وعلى رأسهم الملك الذي مثل رأس النظام القوطي، بالإضافة إلى بقايا طبقة النبلاء الرومان الذين تحالفوا معهم للمحافظة على مكتسباتهم وامتيازاتهم وكان أفراد هذه الطبقة قليلي العدد،وشكلوا فئة أرستقراطية حاكمة ومتميزة، نعموا بامتلاك الإقطاعات الكبيرة والضياع الواسعة، وفقد الانسجام الحضاري بينهم وبين بقية السكان بفعل عدم اختلاطهم بهم والواضح أن هذا الاختلال أوجد نوعا من التنافر بين الطرفين، وفشلت هذه الطبقة في خلق مجتمع متجانس وطني الانتماء وكانت البلاد، حتى منتصف القرن السابع الميلادي، تحكم وتدار من جانب إدارة مشتركة من هذه الطبقة فالنبلاء القوط مسئولون عن السكان القوط، والنبلاء الرومان يمارسون سلطانهم على السكان الرومان،

في حين كان الملك القوطي وموظفوه الكبار يقررون السياسة العامة للدولة وكان ملاك الأراضي الكبار يشرفون على إقطاعاتهم ومزارعهم بواسطة وكلاء ومديري أعمال في مقاطعاتهم والواقع أن أفراد هذه الطبقة كانوا أغنياء جدا، بنوا ثروتهم على حساب الطبقات الفقيرة المعدمة وقد نجح بعضهم في الاحتفاظ بثروته حتى الفتح الإسلامي.

طبقة رجال الدين: استغل رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بقسطٍ وافرٍ من النفوذ والسلطان فامتلكوا الأراضي الواسعة والضياع والقصور الحافلة بالعبيد، وأصبحوا على درجةٍ عاليةٍ من الثراء، فتناسوا المثل العليا التي نادوا بها حين كانوا فقراء، وساعدهم على بلوغ تلك الدرجة تدين الأيبيريين عامة وسيطرة الدين في العصور الوسطى على مجمل الحياة وتمتع رجال الدين بمركزٍ مرموقٍ لدى الحكام مما جعل لهم تأثيرا مكنهم من توجيه القوانين والنظم بما يكفل لهم كسب مزيدٍ من النفوذ والامتيازات،والقدرة على التدخل في الشئون السياسية والعسكرية، وصياغة الحياة العقلية والاجتماعية وفقا لتوجه الكنيسة وغاياتها، فكانوا يحضرون المجالس الوطنية التي كانت تنظر في الشئون العامة للدولة، ويصادقون على انتخاب الملك، وادعت هذه الفئة لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لقراراتها.

الطبقة الوسطى: تألفت هذه الطبقة من فئة التجار وصغار الملاك والمزارعين الأحرار الذين ينتمون لأصولٍ قوطية ورومانية عاشوا في المناطق الريفية والحضرية، ومنهم العمال في المدن الذين كانوا ينتظمون ضمن النقابات، ولا يحق لهم التحول عنها أو الانتقال إلى مدينةٍ أخرى، وحرموا من دخول سلك الكهنوت والقضاء واضطر العديد من سكان الأرياف والمزارعين الأحرار، بفعل ظروفهم الاقتصادية الصعبة، أن يتنازلوا عن أراضيهم للنبلاء، وارتضوا بالعمل والبقاء كمستأجرين مقابل تمتعهم بحمايتهم، فعرفوا بالمحميين والمعروف أن القوط لما نزلوا في أيبيريا، ألزموا كل مزارع أن يتنازل عن ثلث أراضيه لصالح القوطي الذي يريد احتراف هذه المهنة، وفي حال رفض القوطي أن يعمل بالزراعة، يقوم المزارع باستغلال الأرض، ويقدم ثلث إنتاجها للنبيل القوطي، واتسعت هذه القسمة في الأرض وإنتاجها حتى شملت المنازل والماشية ومختلف أنواع الزراعة ومع مرور الزمن، اغتصب النبلاء الأرض كلها وعدوها ملكا للدولة، وأجبروا المزارعين الأحرار على العمل فيها كأنهم أقنان أو عبيد، وأضحى هؤلاء، بمرور الزمن، مرتبطين بالأرض وبأصحاب الأملاك من النبلاء، مدى الحياة وكان على أصحاب هذه الطبقة تقديم عشر محاصيلهم إيجارا، إضافة إلى تأدية بعض الخدمات الشخصية للنبيل، وضريبة الرؤوس أو الجزية، وقد وقع عليهم عبء الإنفاق على الدولة، الأمر الذي أدى إلى ضعفهم وإفلاسهم فأصيبوا بالبؤس والشقاء.

طبقة الشعب الدنيا: تكونت هذه الطبقة من المزارعين البسطاء والعبيد الأرقاء، وارتبطوا بالأرض وألحقوا بالضياع، وللسيد عليهم حق الحياة أو الموت وكان هؤلاء جميعا مسخرين لرفاهية الفئات الرفيعة من النبلاء والأسرة الحاكمة وكبار رجال الدين، وكانوا يستخدمون في الأغراض الزراعية والأعمال المنزلية على حدٍ سواء، فرزحوا تحت شقاء الحياة وبؤسها، وسلبت منهم كل الحقوق المدنية، وهم أكثر عددا من أفراد الطبقات الأخرى، وأقل حقوقا.

الوضع الديني

انتشرت المسيحية في ربوع شبه الجزيرة الأيبيرية منذ العهد الروماني، وكان القوط بداية على المذهب الآريوسي الذي يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح على أن المذهب الخلقيدوني الذي كان يدين بطبيعتين للمسيح كان منتشرا في أواسط العامة من غير القوط ولم يفرض القوط مذهبهم، فكان أفراد كل مذهب يمارسون شعائرهم الدينية في كنائسهم الخاصة بحرية، بمساعدة رجال الدين التابعين لهم وأدرك أحد ملوك القوط، وهو ريكاريد الأول عندما حاول إصلاح أوضاع الدولة،

وقد اعترضته هذه الظاهرة الدينية المقسمة التي أدت إلى حدوث مشكلات بين السلطة والكنيسة؛ أن الإصلاح الحقيقي يبدأ بتوحيد المذهب الديني، فاتخذ الخلقيدونية مذهبا رسميا وحيدا للبلاد وهكذا أعلن مجمع طليطلة الديني الذي انعقد في سنة 587م تخلي ريكارد عن المذهب الآريوسي واعتناقه المذهب الخلقيدوني، وتبعه في هذا التحول سائر القوط، فتوحدت الكنيسة الهسپانية تحت ظل الملكية القوطية أعقب هذا التحول المذهبي تبني اللغة اللاتينية كلغة رسمية في هسپانيا، وتوثقت نتيجة ذلك العلاقات مع البابوية التي أضحى تأثيرها كبيرا في شئون البلاد، كما أصبح لأسقف طليطلة مركزًا هاما لا يقل عن مركز الملك نفسه.

بالإضافة إلى الديانة المسيحية، كان ما يزال في أيبيريا عددٌ من السكان الوثنيين،لكنهم تعرضوا للاضطهاد لحملهم على اعتناق المسيحية فقد فرض مجمع طليطلة الثالث في سنة 589م على كل أسقف أن يتعاون مع القاضي المحلي في مكافحة الوثنية في منطقته، وكان البشكنس الباسك من جملة الجماعات الوثنية التي تعيش في منطقة الشمال الشرقي المتاخمة لجبال البرتات، وفشل رجال الدين في حملهم على اعتناق المسيحية طيلة العهد القوطي

وعاشت في هسپانيا جماعة يهودية كبيرة شكلت أحد عناصر السكان في المجتمع القوطي، ويبدو أنهم استوطنوا أيبيريا في وقتٍ مبكرٍ قادمين من المشرق على أثر الاضطهادات المتعددة التي تعرضوا لها في فلسطين على أيدي الرومان، فانتشروا في البلدان الواقعة على سواحل البحر المتوسط، ولقبوا أنفسهم بالسفارديم، وأرجعوا أصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية وانتشر اليهود في مناطق عديدة من أيبيريا، لكنهم تركزوا في الأماكن الحضرية المتقدمة مثل العاصمة طليطلة، والجنوبية، وعلى طول ساحل البحر المتوسط في الشرق وامتلكوا ضياع واسعة، وعملوا في الزراعة والتجارة والصيرفة، فحققوا قدرا وافرا من الثراء أتاح لهم التحكم في الحياة الاقتصادية، ومن خلالها فى الشئون السياسية ويبدو من التشريعات العديدة التي صدرت فى حقهم في عهودٍ مختلفةٍ أن فعاليتهم التجارية كانت مهمة بقدر أهمية نشاطهم الزراعي فلم يتعرض اليهود في مستهل الحكم القوطي للمضايقات، وسمح لهم بحرية العقيدة وممارسة شعائرهم الدينية، ومع مرور الزمن لحكم القوط، شعروا بوطأة اليهود من واقع تصرفاتهم التي عدت شاذة ومعادية، مثل: استغلال الغير، والربا الفاحش،

والسيطرة على الحياة الاقتصادية، والتآمر السياسي للمحافظة على المكتسبات المنجزة، والاستعلاء على النصارى، بالإضافة إلى اتجاه المجتمع الهسپاني نحو الوحدة الدينية نتيجة لذلك ظهر في أيبيريا اتجاهٌ معادٍ لليهود، وبدأ هؤلاء يتعرضون لشتى أنواع المضايقات والاضطهاد، ولعل الملك ألاريك الثاني 484–507م هو الذي افتتح هذه السياسة، وتقرر في مجمع طليطلة الثالث حرمان اليهود من الوظائف العامة، واقتناء العبيد من النصارى، كما فرض التعميد على أطفالهم من الزواج المختلط وخطا الملك سيسبوت 612–621م خطوة أخرى حين أمر في سنة 613م، بتعميد اليهود خلال عامٍ واحد، أو نفيهم ومصادرة أملاكهم في حال الرفض فاعتنق كثيرٌ منهم الديانة المسيحية رياء، وهرب الرافضون إلى الغال وأفريقية.

لم تحقق هذه التشريعات هدفها الخاص بتنصير اليهود، لكن مجمع طليطلة الرابع، الذي انعقد في سنة 633م، أصر على أن اليهود الذين تم تعميدهم لا يحق لهم أن يعودوا إلى دينهم الأصلي، على أن يفصل من عاد منهم إلى دينه عن أبنائهم، وأن يباعوا أرقاء،

كما أصر على تعميد اليهودي الذي يتزوج من مسيحية وإلا فصلت عنه زوجته وتصاعدت الحملة ضد اليهود في المجمع الثاني عشر، الذي انعقد سنة 61هـ- 681م في عهد الملك إيرفيگ (60 - 67هـ \ 680 - 687م)، فحرموا من امتلاك مزارع النصارى، ووصلت ذروة التضييق عليهم في عهد الملك إخيكا، الذي اتهمهم بالتآمر ضده مع يهودٍ من خارج البلاد، فأصدر عدة قرارات تشريعية تهدف إلى شل القدرة الاقتصادية لهم، والحد من قابليتهم للحصول على المعيشة اللائقة، مما حملهم على بيع عبيدهم وممتلكاتهم إلى الدولة، كما منعوا من مزاولة العمل التجاري على مختلف أنواعه سواء أكان داخلي أم خارجي، وتعرضوا للأذى الجسدي، من السخرية بهم وامتهان كرامتهم إلى ذبحهم فرادى وجماعات في عملياتٍ مدبرة وكان من أبرز تشريعات إخيكا محاكمة اليهود واللصوص بالإغراق بالمياه بحال ثبت أن معهم بضائع تفوق قيمتها 300 صوليدوس واستطاع اليهود، في كثيرٍ من الأوقات، تخفيف القيود المفروضة عليهم عن طريق رشوة النبلاء ورجال الدين،

لكنهم مع ذلك تأثروا، إلى حدٍ كبير، الأمر الذي دفع العديد منهم إلى الفرار من البلاد، كما اشترك بعضهم في العديد من الحركات المناوئة للسلطة ومنها ثورةٌ كبرى كانت الإمبراطورية البيزنطية قد خططت لإشعال فتيلها في أيبيريا بالتعاون مع الرومان واليهود المقيمين فيها أدت هذه الاضطهادات التي طالت اليهود قبيل الفتح الإسلامي إلى تطلع هؤلاء إلى أي طرفٍ خارجيٍ منقذٍ لهم من الوضع المتردي الذي كانوا فيه، الأمر الذي جعلهم يتخذون موقفا إيجابيا من الفاتحين المسلمين لاحقا.

الباب الثانى

الدوافع وعمليات فتح الأندلس

دوافع فتح الأندلس

يتصل فتح الأندلس، في كثيرٍ من جوانبه، بسياسة الفتوح في المغرب، والأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق لها علاقة بالأوضاع التي عاش في ظلها السكان قبل الفتح، وهي دينية وجغرافية وسياسية وشخصية حيث يعتبر الكثير من المؤرخين أن المصادر التاريخية التي تتناول فتح الأندلس ينبغي التعامل معها بحذرٍ ودقة: فالمصادر العربية والإسلامية الأولى كتبت بعد تمام فتح الأندلس بفترةٍ طويلة، مما يعني احتمال تأثر الكتاب والمؤرخين المسلمين آنذاك بالأفكار والاتجاهات والأجواء العامة التي كانت سائدة في البلاد، فعلى سبيل المثال يعود كتاب أحمد بن محمد المقري نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب إلى القرن السابع عشر الميلادي عندما كانت الإمبراطورية الأسپانية ألد عدوٍ للمسلمين أما بالنسبة للمصادر المسيحية الأوروپية، فالمصدر الوحيد المعاصر للحدث هو تأريخ عام 754 ، ويعتبره المؤرخون الغربيون من المصادر الموثوق فيها لكن غامضة في نفس الوقت.

الرغبة في الجهاد ونشر الإسلام:

وصل المسلمون إلى أوج قوتهم بعد أن سيطروا على المغرب واستتب الأمن في الدولة الأموية واستقر الأمر لبني أمية وانتهت الفتن والثورات التي قامت في الدولة، وابتدأ العصر الأموي الثاني وأدى هذا الاستقرار إلى تركيز الحكومة المركزية في دمشق على استئناف نشاط الفتوح والغزوات وتوسيع رقعة ديار الإسلام ونشر الدين الجديد بين سكانٍ جدد وكان البربر الذين اعتنقوا الإسلام بعد تمام فتح المغرب ودخلوا في الجيوش الإسلامية كجنودٍ محاربين يتوقون للغزو والجهاد، وكان بعضهم أكثر حماسة للإسلام من العرب أنفسهم وقد أدرك والي أفريقية موسى بن نصير هذه النزعة فاستغلها بتوجيههم إلى الفتوحات الخارجية وكان من الطبيعي أن يكون المسلمين قد فكروا بعد وصولهم إلى بحر الزقاق أن يجتازوه وينساحوا في البلاد الواقعة خلفه لنشر الإسلام فيها والمعروف أن موسى بن نصير قد وضع الخطط لنشر الإسلام في أوسع بقعة ممكنة.

والراجح أنه تطلع إلى الأندلس بعد تثبيت أقدام المسلمين في المغرب الأقصى، فراح يتابع أخبارها ويستقصي أوضاع أهلها وأضحت مدينة طنجة مركز عمليات المسلمين في تلك المرحلة الاستطلاعية بسبب قربها منها، وبفعل موقعها على بحر الزقاق المؤدي إلى تلك البلاد وكان مولى موسى بن نصير القائد طارق بن زياد الذي فتح ما تبقى من مدن في المغرب الأقصى قد أثبت حسن ولائه للإسلام من واقع تعبئة شعور مواطنيه من البربر المسلمين للقيام بالجهاد المقبل، وهو فتح الأندلس، وإرسال ما يصل إليه من أخبارها إلى القيادة العليا في القيروان.

أسباب اقتصادية

كان أمام موسى بن نصير خيارين: توجيه الفتوحات نحو الصحاري المغربية الجنوبية المؤدية إلى بلاد السنغال والنيجر وغانا المعاصرة، أو عبور المضيق نحو أيبيريا ولما كانت الأقاليم السودانية تشبه تماما الطبيعة العربية الصحراوية من ناحية القحط وصعوبة المسالك، وكان المسلمين قد عرفوا وفتحوا بلادا غنية في الشام ومصر والعراق وفارس والمغرب، واستفادوا من مواردها الاقتصادية والبشرية، فضلوا توجيه أنظارهم نحو الأندلس خاصة بعد أن علموا ما كانت عليه هذه البلاد من الغنى.

الأوضاع المضطربة في بلاد الأندلس

علم موسى بن نصير، عن طريق واليه على طنجة طارق بن زياد، بأوضاع الأندلس المتردية بفعل الصراع على السلطة بين لذريق وأولاد غيطشة، بالإضافة إلى تطلع السكان إلى المسلمين في شمال أفريقيا لإنقاذهم من متاعبهم، خاصة اليهود الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد

وكتب أولاد غيطشة إلى جوليان عامل الروم السابق على طنجة وسبتة يلتمسون مساعدته للإطاحة بنظام لذريق بعد أن سلبهم ملكهم، وربما أوحوا إليه بفكرة الاستعانة بالمسلمين بعد أن علموا بأن هؤلاء قد أشرفوا على البحر عند طنجة، وربما اشتركوا في الوفد الذي ذهب إلى أفريقية لمقابلة موسى بن نصير وطلب المساعدة منه، معتقدين أن المسلمين سيكتفون بالغنائم ويعودون إلى المغرب، ويستعيدون هم الحكم وأملاك والدهم الخاصة التي تقدر بثلاثة آلاف ضيعة سميت بعد ذلك بـــصفايا الملوك.

جوليان يطلب الاستعانة بالمسلمين

الرواية التي توردها كل المصادر العربية والإسلامية القديمة،تقول أن جوليان صاحب طنجة وسبتة السابق كان حاقدا على لذريق بسبب اعتداء الأخير على شرف ابنة جوليان والمعروف أنه كان من عادة أشراف القوط ونبلائهم أن يرسلوا بنيهم وبناتهم إلى القصر الملكي في طليطلة ليكونوا في خدمة ملوكها، وليتأدبوا بآداب الملوك، فيقضون مدة من الزمن حتى يبلغوا سن الزواج، حتى إذا ما قرر عقد قران بعضهم على البعض الآخر، تولى الملك تجهيزهم،

وكان الرجال يندبون أحيانا في مهماتٍ سياسيةٍ وعسكرية، أما البنات فكن يلازمن القصر وكان جوليان قد أرسل ابنته لاكافا أو فلورندة، إلى قصر طليطلة، جريا على العادة لتتربى في البلاط الملكي تربية الأميرات، فأعجب بها لذريق، فلما تمنعت غن الزواج به اغتصبها، فاشتكت لأبيها الذي ثارت ثائرته لما عرف، فذهب إلى طليطلة وأحضر ابنته وقال: لا أرى له عقوبة ولا مكافأة إلا أن أدخل عليه العرب وحلف وقال: ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن تحت قدميه لذلك أخذ جوليان يسعى للاستعانة بالمسلمين وإدخالهم إلى الأندلس للقضاء على حكم لذريق وأدى جوليان دور الوسيط بين المسلمين وآل غيطشة، فاتصل بطارق بن زياد في طنجة وعرض عليه غزو الأندلس، وبين له حسنها وفضلها وما تحويه من خيرات، وهون عليه حال رجالها ووصفهم بالضعف وتجري رواياتٌ أخرى أن جوليان لم يكن يتوقع، حين طلب المساعدة من المسلمين، أن يستقر هؤلاء في الأندلس، ويبدو أنه خطط للاستعانة بهم فقط لخلع لذريق وإعادة أولاد غيطشة إلى الحكم

يستنتج من هذه القصة أن جوليان كانت تنازعه دوافع شخصية حين قرر الاستعانة بالمسلمين، وسواء كانت تلك الدوافع معنوية أخلاقية أو سياسية نابعة من عدم اتفاقه مع لذريق وانحيازه لأبناء غيطشة الذين كانوا يفكرون في كل وسيلة للانتقام، فالنتيجة واحدة.

حملة طريف بن مالك الاستكشافية

بادر طارق بن زياد بالاتصال بموسى بن نصير في القيروان، وأبلغه بما عرضه عليه جوليان لاتخاذ القرار بشأن ذلك والواقع أنه لم يكن لدى موسى بن نصير ما يدعوه إلى رفض هذه الفكرة في الوقت الذي لم يكن واردا امتداد حركة التوسع نحو الجنوب والانتشار في مجاهل الصحراء الكبرى في حركةٍ مكلفةٍ بلا طائل، فاتجهت أنظاره إلى الأندلس للأسباب سالفة الذكر وفي مقدمتها السبب الاقتصادي الذي من شأنه أن يعود بالنفع على الإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى أن هذا الأمر قد يتطور إلى واقع فتح إسلامي شامل لهذه البلاد يدخلها في دائرة الدولة الإسلامية،

إلا أن عملا ضخما من هذا النوع، لا بد من دراسته بصورةٍ متأنية والوقوف على كافة تفاصيله وفعلا جرت اتصالات بين موسى بن نصير وجوليان، وعقد اجتماعٌ بينهما وقف خلاله موسى بن نصير على أوضاع الأندلس والخدمات التي يمكن أن يقدمها جوليان، كما كان لا بد من أن ينال هذا العمل موافقة الخليفة في دمشق لذا اقترح موسى على جوليان أن يذهب هو أولا إلى استكشاف ساحل الأندلس وأن يحاول النزول في مكانٍ أمينٍ منه، خشية أن يكون جوليان قد دبر للجيش الإسلامي مهلكا، فأبحر جوليان في خريف سنة 90هـ - 709م في عصبةٍ من أتباعه من سبتة ونزل على ساحل الجزيرة الخضراء، فقتل وسبى وغنم وأقام بها أياما يشن الغارات، وشاع الخبر عند المسلمين فأنسوا بجوليان واطمئن له موسى بن نصير عند هذه النقطة، كتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يبلغه بما عرضه جوليان وما آلت إليه حملته ويستأذنه في العبور تردد الوليد بن عبد الملك في بادئ الأمر، خشية على المسلمين من أن يغرر بهم، وأمر موسى بن نصير بأن يتروى في الأمر، وأن يختبر البلاد بالسرايا والحقيقة أن فتح الأندلس كان نتيجة خطة موضوعة نوقشت بين الخليفة وواليه على أفريقية، وأقرها الأول ضمن سياسة التوسع بعد فتح طنجة المشرفة على الأندلس.

ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية العامة وعلاقتها بالروم البيزنطيين، وتأثير الحملة على هذه العلاقات، وبخاصة في المجال البحري والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر المتوسط؛ تأثيرٌ على قرار الخليفة وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصارا آخر، وتنفيذا لأوامر الخليفة، اختار موسى بن نصير أحد القادة المسلمين، وهو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري، وسيره على رأس أربعمائة راجل ومائة فارس، في أربع سفن أعدها جوليان، للإغارة على الشواطئ الأندلسية المقابلة، وذلك في شهر رمضان سنة 91هـ الموافق فيه شهر يوليو سنة 710م نزل المسلمون في جزيرةٍ صغيرةٍ اسمها پالوماس سمبت منذ ذلك الحين بجزيرة طريف، والراجح أن طريفا اجتمع فيها بجماعةٍ من مؤيدي الملك السابق غيطشة ومعهم أحد أحبار اليهود ويدعى يعقوب، كان يتخفى بزي الخدام ويعمل في قصور آل غيطشة، حيث تقرر أن تقوم قوة قوطية معارضة للملك لذريق بمساعدة المسلمين وحراسة المضيق. وشن طريف، من مركزه بتلك الجزيرة، عدة حملات استطلاعية ناجحة على سواحل الأندلس الجنوبية

وبالأخص الجزيرة الخضراء، درس خلالها تحصيناتها وتحرى أوضاع سكانها ومدى علاقتهم بالحكام القوط، ثم عاد إلى طنجة محملا بالغنائم أكدت حملة طريف بن مالك صدق جوليان حين عرض المساعدة على المسلمين، وكشفت عن ضعف المقاومة في الأندلس، وأقنعت موسى بن نصير بسهولة العبور والنزول على الشاطئ دونما أخطار بحرية جدية. ونتيجة لذلك قرر البدء بتنفيذ عملية الغزو.

العمليات العسكرية

عبور طارق بن زياد والانتصارات الأولى

شجع نجاح طريف موسى بن نصير على المضي في خطته لفتح الأندلس بتكتمٍ شديدٍ حتى لا يتسرب خبرها إلى القوط وبعد انتهاء الاستعدادات وإتمام التجهيزات، أعد قوة عسكرية مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر والموالي، في حين تقدر بعض المراجع الغربية عدد جيش المسلمين بين 1,700 و12,000 مقاتل.

ولم يتعدى عدد المقاتلين العرب الثلاثمائة،وقيل كان فيهم ستة عشر رجلا من العرب فقط، واختار لها أحسن قادة المسلمين آنذاك، وأشدهم ثقة به، وهو طارق بن زياد والواقع أن حملة معظم أفرادها من البربر تعد سابقة تحدث لأول مرة في تاريخ الفتوح الإسلامية، وهو اختيارٌ مقصود من والي أفريقية بفعل أن سياسته المرنة مع البربر قد أثمرت ودفعت هؤلاء إلى مشاركة العرب في الجهاد وكان لهذه السياسة رد فعلٍ إيجابيٍ على الطرفين فقد رأى موسى بن نصير أن يستفيد من طاقات البربر العسكرية ويكسب مودتهم.

ولم يكن البربر أقل تجاوبا يضاف إلى ذلك، فقد كان طارق بن زياد على معرفةٍ وثيقةٍ بأوضاع الأندلس بفعل مجاورة البربر للقوط وتعاملهم التجاري معهم، كما تولى بنفسه جمع المعلومات عنها، وأجرى المفاوضات الأولية من جوليان وبشكلٍ عام، أضحى هذا القائد خبيرا بالميدان الجديد من سائر نواحيه السياسية والعسكرية، ويعد اختياره خطوة صائبة، إذ أثبتت مدى ما يتمتع به موسى بن نصير من تفكيرٍ مستنير، وخبرة في الشؤون العسكرية والواقع أن موسى بن نصير سلك نهج أقرانه من القادة العسكريين الذين فتحوا الشام والعراق وفارس ومصر وأفريقية، وهو إرسال حملة قليلة العدد ثم تعزز بإمدادات لا تتوقف حتى يتم تحقيق الأهداف.

كما أن ذلك كان مقصودا لعدم إثارة ريبة جوليان. غير أن هذا القائد لم يشأ أن تكون للحملة سمة بربرية مطلقة، فأنشأ مجلسا استشاريا لمساعدة طارق بن زياد في إدارة العمليات العسكرية، معظم أعضائه من العرب، واشترك القائد البربري منوسة في الحملة عبر طارق المضيق

يوم الإثنين 5 رجب 92هـ 28 أبريل 711م، على متن أربع سفن تجارية قدمها جوليان والواقع أن طابع الحملة السري دفع موسى بن نصير إلى الاعتماد على سفن جوليان التجارية، ونزل طارق مع جنوده أمام جبل كالبي المنيع الذي حمل اسمه منذ ذلك الحين وصار يعرف بجبل طارق، واتخذه مركزا لتجمع قواته وقاعدة للانطلاق إلى الداخل الأندلسي وحتى يؤمن على جنوده ضد أي هجومٍ مفاجئ من جانب القوط، سور تلك القاعدة وحصنها.

تعددت الروايات في المصادر الإسلامية التي تحدثت عن شخصية طارق بن زياد وفضله في فتح الأندلس، ومن أبرز تلك الروايات ما نقله ابن الأثير من أن طارقا لما ركب البحر من المغرب إلى الأندلس غلبته عيناه، فنام ورأى الرسول محمد في منامه ومعه المهاجرين والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا طارق، تقدم لشأنك، فنظر طارق فرأى أنه وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشرا وبشر أصحابه، وقويت نفسه ولم يشك في الظفر

ويبدو أن موسى كان قد أمر طارقا، من باب الاحتياط، أن يعود إلى أفريقية إذا ظفر في قتال القوط في الأندلس، أو أن يلبث مكانه ينتظر منه أمرا جديدا وكذلك كان موسى قد بعث جوليان مع طارق ليدله على عورات البلاد وليتحسس له الأخبار والواقع أن خدمات جوليان لم تقتصر على تسهيل العبور إلى الأندلس.

بل أدى هذا الرجل دورا بارزا في عملية الفتح، إذ كانت معلوماته القيمة عن أوضاع مملكة القوط والاتفاقيات التي عقدها مع المعارضة القوطية واليهود، الساخطين على حكم لذريق؛ كان لها أثرها الإيجابي في نجاح المسلمين والراجح أن اندلاع ثورة البشكنس (الباسك) في الشمال، في الوقت الذي عبر فيه المسلمون بحر الزقاق، لم يكن صدفة، بل كان بالتنسيق مع المعارضة لإلهاء لذريق في مناطق بعيدة عن الخطر الإسلامي ولم يكد طارق بن زياد يستقر مع جنوده في قاعدته عند الجبل، حتى بادر باستكشاف المنطقة تمهيدا للسيطرة على المناطق المجاورة المحيطة ببحر الزقاق، بهدف تأمين مؤخرة جيشه والمحافظة على خطوط مواصلاته مع قواعده في شمال أفريقيا وتنص بعض المصادر العربية والإسلامية أن طارق بن زياد أقدم على حرق السفن التي عبر عليها بحر الزقاق،

حتى يقطع على جنوده كل أمل بالعودة إلى المغرب، ويحفزهم على الاستبسال في القتال أرسل طارق بن زياد قوة عسكرية بقيادة عبد الملك بن أبي عامر، سارت بمحاذاة الساحل الشمالي الغربي، وفتحت مدينة قرطاجنة، ثم توجهت جنوبا وفتحت مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة قبالة جبل طارق فوجئ لذريق، الذي كان في مدينة بنبلونة في الشمال، بنزول المسلمين في بلاده، بيد أنه لم يتهيب الموقف للوهلة الأولى، لاعتقاده أن المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات النهب، لن تلبث أن تتلاشى، لكنه مع ذلك قوم الموقف حين وصلت إلى مسامعه معلومات تفيد بتقدم هؤلاء باتجاه قرطبة، فأسرع إلى طليطلة لحشد طاقات المملكة، وأرسل قوة عسكرية على وجه السرعة بقيادة ابن أخته بنشيو، للتصدي لهم، فاشتبك معهم في قتال خفيف انتهى بمقتله وانتصار المسلمين وجرت المعركة بالقرب من الجزيرة الخضراء، وفر من نجا من جنوده باتجاه الشمال ليخبروا لذريق بما جرى، وبفداحة الخطر القادم من الجنوب.

معركة وادي لكة

طلب لذريق من جميع الأشراف والنبلاء والإقطاعيين أن يحشدوا المقاتلين، وأخذت الإمدادات ترد عليه من كل المناطق، حتى اجتمع لديه في وقتٍ قصير ما بين أربعين إلى مائة ألف مقاتل، كما طلب المساعدة من أولاد غيطشة نظرا لعموم المحنة، لكن هؤلاء ظلوا على ولائهم، سرا للخطة التي وضعوها مع جوليان من أجل الإطاحة به، ومع ذلك فقد استجاب له إثنان منهم هما ششبرت وأبة، لكن ظاهريا فقط، وهما ينويان الغدر به، فرحب بهما، وعين الأول على ميمنته والثاني على ميسرته وكانت وجهة لذريق مدينة قرطبة للمحافظة عليها نظرا لأهمية موقعها الوسطي بين العاصمة طليطلة والجزيرة الخضراء، وهي مفتاح الطريق الذي يسيطر على الأندلس الجنوبية الشرقية، فوصل إلى ضواحيها ثم تابع زحفه فى اتجاه الجنوب وأخذت أخبار لذريق تصل إلى مسامع طارق بن زياد، فتهيب الموقف.

وأدرك أنه لا طاقة له بمواجهته بهذا العدد الضئيل الذي معه نسبيا ، فأرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب منه الإمدادات

لم يتردد موسى، لدى استلامه كتاب طارق، وأمده بخمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك استأنف طارق بن زياد زحفه باتجاه الشمال، على أثر وصول الإمدادات، عبر أرض سهلية تتخللها المستنقعات، واستقر به المقام أخيرا حول بحيرة لاخندا من كورة شذونة، ويخترقها نهر برباط الصغيرن وعسكر على ضفته اليسرى، ثم وصل لذريق وعسكر على الضفة اليمنى للنهر وكان في ذلك المكان قرية صغيرة سماها المسلمون لكة أو بكة، ومنها جاء اسم المعركة تنص بعض المصادر العربية والإسلامية أن طارق بن زياد خطب فى المسلمين خطبة قوية يشجعهم فيها ويحثهم على القتال والجهاد، جاء فيها:

أيها الناس أين المفر؟ البحر ورائكم والعدو أمامكم، فليس والله إلا الصدق والصبر فإنهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران لا تضر معهما قلة ولا ينفع معهما الخور والكسل والإختلاف والفشل، والعجب كثرة أيها الناس، ما فعلت من شيءٍ فافعلوا مثله، وإن حملت فاحملوا وإن وقفت فقفوا، وكونوا كهيبة رجلٍ واحدٍ في القتال، وإني صامدٌ إلى طاغيتهم لا أتهيبه حتى أخالطه،

أو أقتل دونه، فلا تنازعوا إن قتلت فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الأدبار لعدوكم فتتبددوا بين قتيلٍ ومأسورٍ وإياكم أن ترضوا بالدنيا ولا تعطوا بأيديكم ما قد عجل لكم من الكرامة والراحة من المهانة والذلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة فإنكم إن تفعلوا، والله يعظكم تتبوؤا بالخسران المبين وسوء الحديث، غدا بين من عرفكم من المسلمين، وما أنا ذا حتى أغشاه فاحملوا بحملتي، وأنا غير مقصودٍ دونه.

تقابل الجمعان يوم الأحد 28 رمضان 92هـ 19 يوليو 711م، واشتبكا في قتالٍ عنيفٍ استمر سبعة أيام ولما تراءى الجيشان ثبت طارق في مكانه وأطمع لذريق في أن يقطع المستنقعات إليه، على غرار الخطة التي كان خالد بن الوليد قد رتبها على نهر اليرموك تكبد لذريق الكثير من القتلى والجرحى خلال المعركة، وحدث في اليوم الرابع من القتال أن انسحب ابنا غيطشة ششبرت وأبة مع فرسانهما من الجناحين وانضما إلى صفوف المسلمين، وفق الخطة الموضوعة، مما أدى إلى تضعضع صفوف الجيش القوطي، وبدأ أفراده فى الترنح والهرب طلبا للنجاة. والمعروف أن هذا الجيش ضم كثيرا من العبيد الساخطين على حكم القوط ويتمنون زواله.

فوجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص، لذلك تراخى هؤلاء في القتال قبل أن يفروا بعد انسحاب الفرسان من الجناحين ، وأضحى لذريق لا يملك القوة الكافية للاستمرار في القتال، ومع ذلك فقد صمد حتى اليوم الثامن، وعندما تحقق من هزيمته، هرب من ميدان المعركة من دون أن يعرف مصيره بالضبط، وقد وجد فرسه بالقرب من إحدى المستنقعات، كما وجد أحد خفيه وهو طاف فوق الطين الأسود.

مما يدل على أنه وقع عن حصانه لدى وصوله إلى المستنقع وغاص فيه من دون أن يتمكن من الخروج فغرق،وفر من نجا من جنوده إلى الداخل نحو المعاقل والحصون ويذكر عدد من المؤرخين المحدثين أن لذريق لم يقتل في تلك المعركة، بل انسحب نحو الشمال، إلى ماردة، ثم إلى سلسلة جبال سلمنقة ليعيد تنظيم صفوف قواته، وأنه قتل في المعركة الثانية مع المسلمين، التي واجه فيها جيش موسى بن نصير وطارق بن زياد، في السواقي، على يد مروان بن موسى بن نصير على أن المصادر الإسلامية لا تكرر ذكر لذريق بعد معركة وادي لكة، أضف إلى ذلك، ظهرت في الأندلس الملاحم التي ظل الناس يتناقلونها على مدى أجيال،

وفحواها أن لذريق سيعود لتخليص البلاد من أيدي المسلمين وكانت معركة وادي لكة كاليرموك في الشام والقادسية في العراق ونهاوند في فارس، إذ دمرت القوة الميدانية للجيش القوطي مما أفقده القدرة على الدفاع عن المدن الكبرى، وأضحت المقاومة بعدها قصيرة الأمد، مما هيأ للمسلمين أن ينسابوا إلى جوف الأندلس ويفتحوا المدن ويستقروا فيها تكبد المسلمون ثلاثة آلاف قتيل، أما قتلى القوط فكانوا أضعاف ذلك لأن عدد الذين نجوا من المعركة وفروا، بعد ذلك، كان قليلا وحاز المسلمون جميع ما كان في معسكر القوط من العدة والمتاع والمؤن والأموال، وقسم الفيء بين الآلاف التسعة الذين نجوا، فأصاب كل منهم مائتان وخمسون دينارا.

فتح إستجة

كتب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بالقيروان يبشره بالنصر، ويخبره بأن الطريق بات مفتوحا أمامه للولوج إلى قلب البلاد فأرسل موسى بن نصير بدوره تقريرا مفصلا إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق يصف فيه الانتصار الكبير، الذي أكسب الإسلام أرضا جديدة،

وقال: لم يكن هذا فتحا كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين، فإن الواقعة كانت أشبه باجتماع الحشر يوم القيامة فاستبشر الوليد خيرا بهذا النصر، وسمح للقادة المسلمين بمواصلة الطريق، وفي نفس الوقت تناهى إلى أسماع المسلمين في المغرب والشام ومصر انتصار طارق بن زياد، فتطوعوا من كل جهة للحاق به والمساهمة معه في فتح الأندلس ازدادت قوة المسلمين بعد معركة وادي لكة وارتفعت معنوياتهم بعد ذلك الانتصار ، ومن جهةٍ أخرى أصاب القوط الارتباك والذعر، الأمر الذي أتاح لطارق بن زياد أن يستغل هذا الوضع كي لا يتيح للجيش القوطي فرصة لإعادة التنظيم والتجمع، ويدعم سيطرته على جنوب الأندلس، فبدأ ما يمكن تسميته بحرب المدن ففتح المسلمون مدينة شذونة بعد انتهاء المعركة.

ثم توجهوا نحو مدينة إستجة الواقعة على الطريق المؤدي إلى قرطبة، حيث احتشدت فيها فلول القوط الهاربة في محاولةٍ لمنع المسلمين من دخولها، وفتح طارق بن زياد في طريقه مدينة مورور في منطقة إشبيلية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها ونظرا لمناعتها اضطر إلى طلب المساعدة من جوليان الذي كان آنذاك في الجزيرة الخضراء.

فجاء سريعا واشترك معه في الحصار وجرت مناوشات شديدة بين المسلمين وحامية المدينة كثر فيها القتل والجراح، وبعد مرور عدة أشهر من الحصار أدرك حاكم المدينة صعوبة الاستمرار في المقاومة فاستسلم، ودخل المسلمون المدينة وفرضوا الجزية على سكانها بعد تأمينهم على حياتهم ودينهم وكنائسهم وأديرتهم، وهربت فلول القوط إلى مدنٍ أخرى وانضم إلى طارق بن زياد في إستجة، جمعٌ غفيرٌ من الساخطين على النظام الملكي القوطي، ممن فضلوا التحالف مع المنتصر على ذل العبودية وقدم له اليهود عون عسكري كأدلاء أرشدوه إلى أيسر الطرق والمسالك عبر أراضي الأندلس الشاسعة، بالإضافة إلى الخدمات المدنية، مستبشرين بزوال حكم القوط ونجاتهم من اضطهادات رجال الحكم البائد، فكان هذا الدور نابعا من موقفهم من النظام القوطي الذي أضر كثيرا بمصالحهم التجارية والمصرفية،ومع ذلك، فقد بولغ في الدور الذي ساهم فيه هؤلاء في الفتح لا سيما من قبل بعض المؤرخين الأسبان، بهدف محاولة التلميح أن المسلمين لم يتمكنوا من فتح البلاد لولا مساعدة اليهود.

فتح قرطبة

أضحى الطريق مفتوحا أمام طارق بن زياد للزحف إلى قرطبة، غير أنه عدل عن خطته وقرر التوجه نحو طليطلة عاصمة القوط بسبب ما استجد فيها من أحداث، حيث برز التنافس بين الجماعتين المتنافرتين: جماعة لذريق وجماعة آل غيطشة، ذلك أن الهيئات الحاكمة بدأت تعيد تنظيم صفوفها للتصدي للمسلمين بعد أن تناهت إلى أسماعها الشائعات أن لذريق لم يقتل، وفي الوقت نفسه، راح أنصار آل غيطشة يعقدون اجتماعات، بدورهم، في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكا مكان لذريق المهزوم، وبذل أخيلا جهدا كبيرا في محاولةٍ لإقناع مجلس المدينة بالاعتراف به ملكا وسط الذعر الذي ساد الجميع عقب الهزيمة لذا كان على طارق بن زياد أن يزحف بسرعة إلى عاصمة القوط قبل أن يتمكن أي طرف من الطرفين المتنازعين من السيطرة عليها، مما قد يصعب على المسلمين مواجهة الموقف،والمعروف أن آل غيطشة ظلوا واهمين أن المسلمين لم يدخلوا الأندلس ليستقروا فيها،

بل لمساعدتهم على استعادة الحكم مقابل الحصول على الغنائم وبفعل أهمية قرطبة في إحكام السيطرة على جنوب الأندلس، استجاب طارق بن زياد إلى نصيحة جوليان الذي قال له: قد فتحت الأندلس، فخذ من أصحابي أدلاء، ففرق معهم جيوشك وسر معهم إلى مدينة طليطلة ففصل فرقة عسكرية تقدر بسبعمائة فارس، بقيادة مغيث الرومي، مولى عبد الملك بن مروان، وأرسلهم إلى قرطبة لفتحها عسكر مغيث الرومي في قرية شقندة على بعد ثلاثة أميال من قرطبة، وأرسل جواسيس للوقوف على أوضاعها.

فعلم أن النبلاء غادروا المدينة ولم يبق فيها سوى الضعفاء وحامية عسكرية تقدر بأربعمائة مقاتل بقيادة حاكم المدينة، فزحف إليها وضرب حصارا عليها واقتحمها، وفرت حاميتها إلى كنيسة تقع غرب المدينة وتحصنت فيها، فحاصرها، وضيق على من فيها وقطع الماء عنهم، واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر فاضطر المحاصرون إلى إخلائها والاحتماء بجبل قرطبة وما أن خرج الحاكم من الكنيسة حتى شاهده مغيث الرومي، فطارده وقبض عليه، فلما شاهد أفراد الحامية ما حل بقائدهم استسلموا، فقتلهم مغيث الرومي، وأبقى على حياة القائد ليسلمه إلى الخليفة

أما مصير السكان الذين احتموا بالكنيسة، فتقول إحدى الروايات أن مغيث الرومي أمنهم على حياتهم وممتلكاتهم ودينهم، وفي رواية أخرى أنه دعاهم إلى الإسلام أو الجزية فرفضوا، عندئذٍ أضرم النار في الكنيسة فاحترقوا، وسميت هذه الكنيسة بكنيسة الحرقى أو كنيسة الأسرى، واستمر المسيحيون في الأندلس يعظمونها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء.

تقسيم الجيش الإسلامي

النصريون

قسم طارق بن زياد الجيش الإسلامي أربعة أقسام: بعث قسما منه بقيادة مغيث الرومي إلى قرطبة كما سلف، وبعث قسما آخر إلى مالقة، ثم بعث قسما ثالثا إلى إلبيرة وأمره بأن يتابع طريقه بعد ذلك إلى مرسية ثم سار هو ببقية الجيش في اتجاه طليطلة وكان قد جعل في كلٍ من هذه الأقسام أدلاء من أصحاب جوليان أما الجيش الذي توجه إلى قرطبة فقد فتحها كما سلف، أما الجيش الذي توجه إلى مالقة، على الشاطئ الجنوبي من الأندلس، فقد فتحها وجميع أعمالها فتحا يسيرا هينا، بعد أن هربت حاميتها من القوط والفرنجة إلى جبال رية واعتصموا بها ولم يجد المسلمين في مالقة يهودا أما الجيش الذاهب إلى إلبيرة فاتجه أولا جنوبا في شرق حتى فتح أرشذونة ثم عطف شرقا نحو غرناطة مدينة كورة إلبيرة ففتحها فتحا هينا، لأن كثيرا من أهلها كانوا يهودا، وقد استعان المسلمين بهم على ضبط المدينة وإدارتها ومساندة الحامية الإسلامية فيها وكان في الجيش الذي فتح غرناطة المجاهد المشهور حنش بن عبد الله الصنعاني، فأسس فيها مسجدا

ثم سار الجيش نفسه الذي كان قد سار إلى غرناطة إلى مرسية، في الجانب الشرقي الجنوبي من الأندلس وكان في مرسية نبيلٌ قوطي عرفه المسلمين باسم تدمير بن عبدوس ويلفظ في لغته الأم ثيوديمير أو تيودمير يعيش شبه مستقل في تلك المنطقة منذ أيام لذريق، الذي قيل أنه استخلفه على الأندلس قبيل اندلاع معركة وادي لكة وقال له: قد وقع بأرضنا قومٌ لا ندري من أهل الأرض هم أم من السماء واختار تدمير أن يقاوم المسلمين فانهزم أمامهم هزيمة منكرة في قرطاجنة،وهي ثغر مدينة مرسية، حتى كاد جيشه أن يفنى عندئذٍ انسحب تدمير بمن بقي معه إلى مدينة أوريولة، وعمد إلى الحيلة، فأمر النساء فنشرن شعورهن ثم أعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة وأوقف معهن بقية الرجال ليوهم المسلمين أن في المدينة حماة كثيرين، كما ذهب بنفسه إلى المسلمين متنكراعلى هيئة رسولٍ مفاوض، فاستأمن على نفسه وما يملك من بلاد، فأمنه المسلمون على ذلك كله، وعقد عبد العزيز بن موسى بن نصير بينه وبين تدمير معاهدة

فلما تسلم تدمير كتاب الصلح هذا من عبد العزيز بن موسى أدخل المسلمين إلى أوريولة فرأوا ما فيها من ضعف الحامية وأدركوا خدعة تدمير وعلموا أنه كان بإمكانهم دخول المدينة عنوة وقد أسفوا لما حدث،لكنهم وفوا لتدمير بما كانوا قد شرطوا له على أنفسهم في كتاب الصلح.

فتح طليطلة

عبر طارق بن زياد نهر الوادي الكبير عند منجيبار وتقدم نحو الشمال عبر الطريق الروماني القديم المسمى طريق حنبعل نسبة إلى القائد القرطاجي حنبعل أو هنيبعل الذي مر عبره أثناء حملته على روما خلال الحروب البونيقية، فألفى نفسه أمام العاصمة القوطية كانت المدينة خالية ممن يحميها أو يدافع عنها، فقد فرت منها حاميتها مع كبار رجال الدولة، عندما علموا بتقدم المسلمين باتجاه مدينتهم في جوٍ من الارتباك من واقع عدم قدرتهم على الصمود والمقاومة، فهرب حاكمها إلى مدينةٍ خلف الجبل يقال لها ماية، وكذلك كان أسقفها سندريد قد تركها أيضا ولحق بروما.

كما غادرها معظم السكان باستثناء اليهود، فدخلها طارق بن زياد دون قتال وبعد أن تعرف على أوضاعها،ترك فيها حامية عسكرية وغادرها باتجاه الشمال لتعقب فلول الهاربين فسلك وادي الحجارة واجتاز الجبل عبر ممر فج، فألقى نفسه أمام قريةٍ تقع خلف الجبل على مقربةٍ من قلعة هنارس،أطلق المسلمون عليها اسم المائدة، لأنهم عثروا فيها على كنزٍ ثمين هو عبارة عن أواني ذهبية مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة تشبه أواني الموائد التي يستعملها الملوك عادة، فنسبوها إلى النبي سليمان بن داود بعد ذلك تابع المسلمون توغلهم في منطقة وادي الحجارة، وفتحوا قلعة هنارس، ثم عاد طارق بن زياد بجيشه إلى طليطلة ليقضي فيها فصل الشتاء، وليدرس خطة المرحلة التالية من الفتح على ضوء ما يستجد من تعليمات والي أفريقية ومع ذلك فهناك روايات تشير إلى أنه استمر في زحفه حتى وصل إلى مدينة أماية في منطقة برغش في إقليم كنتبرية في أقصى شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، وتابع تقدمه إلى مدينة أسترقة في إقليم أشتوريس، حيث استقر بها حتى وافاه موسى بن نصير فيما بعد،

ويذهب بعض المؤرخين المحدثين أنه استرسل في التقدم حتى أشرف على مدينة خيخون المطلة على خليج جسكونية والواقع أنه من الصعب على طارق بن زياد أن يصل إلى تلك المناطق النائية عبر أراضٍ جبلية، خاصةً أن جيشه قد أجهده المسير الطويل الشاق وهو مثقل بالغنائم، وقد أضحى فصل الشتاء على الأبواب، كما أنه لم يكن قد ثبت أقدامه في الأراضي المفتوحة ولا شك أنه أدرك أن ابتعاده عن طليطلة ربما يشجع أعداءه على إعادة تنظيم صفوفهم واسترداد ما خسروه، يضاف إلى ذلك، أنه لم يكن هدفه آنذاك تعقب الفارين بعد أن حصروا أنفسهم في إقليم أشتوريس بقدر ما كان هدفه تصفية مراكز المقاومة في المناطق المفتوحة، وتثبيت أقدامه فيها خشية عودتهم إلى تهديد العاصمة، لذلك كانت إقامته في طليطلة ضرورية لتحقيق هذا الهدف وهكذا، ففي أقل من سنة فتح المسلمون جنوبي أيبيريا ووسطها وثبتوا أقدامهم في أرض الأندلس، وقضوا على المملكة القوطية المتداعية.

عبور موسى بن نصير

كان رد الفعل لنجاح طارق بن زياد كبيرا في شمال أفريقيا، فقد توجه البربر إلى الأندلس بعد سماعهم بانتصارات المسلمين هناك، وبدأوا بالاستقرار في المناطق السهلية من البلاد لاسيما تلك التي هجرها سكانها الذين هربوا إلى القلاع والحصون وكان موسى بن نصير يتابع تحركات طارق بن زياد العسكرية خطوة خطوة، ويبدو أنه أدرك خطورة الانتشار الواسع للقوات الإسلامية بدون تغطية عسكرية كافية، الأمر الذي يسهل على العدو مهاجمتها، من دون أن تتمكن من اتخاذ وسائل الدفاع المناسبة عن نفسها، فتضيع ثمرات النصر، ذلك أن خطوط مواصلاتها، بين طليطلة والجزيرة الخضراء والمغرب، أضحت غير آمنة، لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، وما زالت جماعاتٌ من القوط تحكم المدن الواقعة وراء خطوط مواصلاتهم، وتنتظر الوقت المناسب للانقضاض عليهم كما يبدو أنه رأى أن قائده استنفذ طاقته القتالية بعد الجهد الكبير الذي بذله، خاصة أن عدد جنوده لم يكن كافيا لفتح تلك البلاد الواسعة والدفاع عن المنجزات المكتسبة، ولا بد من دعمه بمددٍ عسكريٍ فضل أن يترأسه بنفسه.

استخلف موسى بن نصير ابنه عبد الله على القيروان ثم غادرها على رأس جيشٍ يقدر بثمانية عشر ألف مقاتل وقيل عشرة آلاف معظمهم من القبائل العربية اليمنية والقيسية والشامية، وضم أعدادا كثيرة من رجال قريش البارزين الذين كانوا في مناصب القيادة في القيروان، إضافة إلى الإداريين ورجال الدين وبقية القادة المشهورين، أمثال: محمد بن أوس الأنصاري وحبيب بن أبي عبيدة الفهري وعياش بن أخيل وعبد الجبار بن أبي سلمى الزهري، واصطحب معه عددا من أولاده ونهض موسى بن نصير من القيروان في شهر رجب من سنة 93هـ أبريل 712م، فعبر مضيق جبل طارق وعسكر في الجزيرة الخضراء لعدة أيام حيث وزع المهمات العسكرية على قادته.

فتح قرمونة

عقد موسى بن نصير اجتماعا مع جوليان الذي اتخذ الجزيرة الخضراء مقرا له، ناقش فيه التطورات المستجدة، وجرى تقييم حملة طارق ولعل جوليان زوده بالمعلومات اللازمة عن المعاقل الهامة في المناطق التي ما زالت خارج نطاق السيطرة الإسلامية خاصة مدينة أشبيلية ، بالإضافة إلى أفضل الطرق التي سيسلكها، وتقرر اعتماد الطريق الغربي المؤدي إلى أشبيلية ،

وهو غير الطريق الذي سلكه طارق بن زياد، وذلك بهدف غزو غربي الأندلس، وإحكام السيطرة على المنطقة، وبخاصة أنها كانت مأوى معظم الفلول الهاربة من الجيش القوطي وقبل أن يغادر موسى بن نصير الجزيرة الخضراء، أمر بوضع حجر الأساس لبناء مسجدٍ هناك تخليدا لذكرى حملته هذه، سمي بمسجد الرايات تقدمت القوات الإسلامية على الطريق المؤدي إلى أشبيلية فأعادت إخضاع شذونة بعد أن خرج أهلها عن طاعة المسلمين، فحاصرهم موسى بن نصير حتى أذعنوا من جديد، كما فتحت قلعة رعوان، ثم سار المسلمون إلى مدينة قرمونة المشهورة بحصانتها، لذا استخدم موسى بن نصير الحيلة في فتحها، فأرسل بعض الجند على هيئة المنهزمين ومعهم السلاح، فأظهروا لحاميتها أنهم أصدقاء جاؤوا فرارا من المسلمين، فسمح لهم أفراد الحامية بالدخول. وما أن حل الليل حتى هاجم هؤلاء الحراس، وفتحوا أبواب المدينة للجيش الإسلامي الذي دخلها وسيطر عليها أمن فتح قرمونة إقامة خطٍ عسكريٍ يربط الجزيرة الخضراء بكلٍ من شذونة وقرمونة وإستجة وقرطبة، مدعما بمراكز عسكرية، بالإضافة إلى سيطرة المسلمين على مراكز الدفاع الأمامية لأشبيلية .

فتح أشبيلية

تقدمت القوات الإسلامية بعد ذلك إلى أشبيلية التي تعد من أكبر مدن القوط بعد طليطلة، ومصدر الخطر المباشر على القوات الإسلامية التي كانت تحت قيادة طارق بن زياد في الداخل، ونقطة التقاء الطرق الهامة في جنوب الأندلس، لاسيما تلك التي تربط الجزيرة الخضراء بداخل البلاد، وضربوا عليها حصارا مركزا استمر بضعة أشهر، دافع خلالها القوط عن مدينتهم بضراوة، مما يدل على خطورة مركز القوط بها واستعدادهم لمقاومة المسلمين، ولم تسقط المدينة إلا بعد أن تلقى موسى بن نصير مساعداتٍ من الداخل، حيث قام اليهود في المدينة بدورهم المتفق عليه لمصلحة المسلمين، كما أدى أسقفها أوپاس دورا في ذلك، وفرت حاميتها إلى مدينة باجة المجاورة وانضمت إلى جموع القوط بها أمن فتح أشبيلية ، المركز المسيطر عسكريا على جنوب الأندلس، وحرم القوط من قطع خطوط مواصلات المسلمين، وشكلت المدينة، بفعل أهمية موقعها، إحدى قواعد الدفاع الكبرى للمسلمين في الأندلس.

حصار ماردة وفتحها

واصل المسلمون تقدمهم حتى ماردة الواقعة في شمال غرب الأندلس في منطقةٍ وعرة المسالك وكانت ماردة آخر العواصم القديمة الأربع للقوط بعد طليطلة وأشبيلية وقرطبة،وكانت حصينة جدا، إذ أحاط بها سورٌ منيع، واحتشدت فيها بقايا القوط وأنصار الملك السابق لذريق، فمضى إليها موسى بن نصير فقاتله أهلها قتالا شديدا على نحو ميلٍ منها أو أكثر قليلا وكان أهل ماردة يخرجون لقتال المسلمين نهارا ثم يلجأون إلى المدينة ليلا وفي ذات ليلة أكمن موسى الرجال والخيل في حفر كانت عبارة عن مقالع يقطع منها أهل ماردة الحجارة فلما خرج الأهالي في اليوم التالي على عادتهم لقتال المسلمين أثار عليهم موسى الكمائن من الرجال والخيل حتى أوقع بهم هزيمة منكرة، فانسحبوا نهائيا إلى المدينة وجعلوا يقاتلون المسلمين من وراء سورها وضرب المسلمون الحصار على المدينة بضعة أشهر قيل أنه أطول حصارٍ عرفه المسلمون في الأندلس

ثم أمر موسى بن نصير بصنع دبابة، فدب المسلمون تحتها حتى وصلوا إلى أحد أبراج المدينة، وبينما كانوا ينقبون السور اصطدموا بصخرةٍ صماء طال نقبهم إياها حتى تنبه أهل ماردة فهاجموهم فهلك جميع المسلمين الذين كانوا تحت الدبابة وشدد موسى الحصار على المدينة حتى يئس أهلها من الصمود في وجه المسلمين فهرب نفرٌ منهم خفية إلى جليقية في الشمال الشرقي من شبه جزيرة أيبيريا ومال الذين آثروا البقاء في مدينتهم إلى طلب الصلح، فأرسلوا وفدا إلى موسى بن نصير للتفاوض بشأن الاستسلام.

وأسفرت المفاوضات عن عقد معاهدة بين الجانبين جاء فيها: ضمان المسلمين سلامة جميع الأهالي سواء الذين يفضلون البقاء في ماردة أو مغادرتها إلى مكانٍ آخر، وضمان الحرية الدينية للسكان وعدم إرغامهم على اعتناق الإسلام والحفاظ على كنائسهم من أن تهدم، ويسلم الأهالي جميع ممتلكات وأموال الذين قتلوا في الحرب إلى المسلمين، بالإضافة إلى الخاصة بالهاربين من القوط إلى جليقية، والأموال والحلي التي كانت فى الكنائس ذلك لأن القوط كانوا يجعلون من الكنائس قلاعا يحاربون المسلمين من وراء جدرانها فقبل أهل ماردة بذلك

وتم التوقيع على الاتفاق وفي يوم 1 شوال 94هـ يونيو 713م، فتح السكان أبواب مدينتهم للمسلمين، فدخلوها ونشروا راية السلام وبعد سقوط المدينة، نظم موسى بن نصير حاميتها العسكرية من العرب والبربر من دون اللجوء إلى جاليتها اليهودية الكبيرة، ولعل هذا مؤشر على أهمية المدينة من جهة، وبداية السيطرة الإسلامية المركزة على مرافق البلاد من جهةٍ أخرى.

انتفاضة أشبيلية

ظلت فلول القوط المهزومة، التي لجأت إلى المدن المجاورة، خارج نطاق السيطرة الإسلامية، فأخذت تراقب تحركات المسلمين وتنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على الحاميات الإسلامية في المدن المفتوحة لاستردادها، وبدأت بأشبيلية ، فهاجمتها وقتلت معظم أفراد حاميتها البالغ عددهم نحو ثمانين رجلا، في حين غادر الباقون المدينة ولحقوا بموسى في ماردة كانت هذه الحركة أول رد فعل قوطي ضد السيادة الإسلامية، وعنوانا على شدة مقاومة القوط، والخطر الذي كان سيتعرض له طارق بن زياد لولا مجيء موسى بن نصير لإنقاذ الموقف

وما أن انتهى موسى بن نصير من فتح ماردة حتى أرسل ابنه عبد العزيز على رأس قوةٍ عسكريةٍ إلى أشبيلية لقمع التمرد ونجح عبد العزيز في القضاء على الثورة وأعاد الأمور إلى نصابها، وحتى يطهر المنطقة المجاورة من المقاومة القوطية، هاجم لبلة وباجة وأكشونبة الواقعة على شاطئ البحر، فدخلها وقضى على كل أثر للمقاومة فيها، واحتاط للأمر، فترك فيها حامية عسكرية تحسبا لما لو كرر القوط محاولتهم،فاستقامت أمور هذه النواحي الغربية واستقرت للمسلمين، وعاد عبد العزيز إلى أشبيلية حيث تركه والده فيها ليقضي على ما قد يظهر في نواحيها من مقاومة لفتت شدة مقاومة القوط انتباه موسى بن نصير، وحتى يدعم منجزات المسلمين، رأى ضرورة وضع المدن المفتوحة في أيدي قادة من المسلمين بدون الاعتماد على السكان المحليين أو غيرهم من الجماعات التي انضمت إليه أثناء زحفه، فعين عبد الجبار بن أبي سلمى الزهري، قائد ميسرة جيشه، واليا على باجة.

اللقاء بين موسى بن نصير وطارق بن زياد

مكث موسى بن نصير في ماردة مدة شهر أراح فيها جنده قبل أن يستأنف السير إلى طليطلة، واستدعى طارق بن زياد ليقابله في الطريق، وفي روايةٍ أخرى أن طارقا علم بقدوم موسى إلى طليطلة فخرج لاستقباله فخرج طارق بن زياد من طليطلة وانحدر منها في حوض نهر تاجة حتى لقي سيده في مكانٍ يدعى المعرض بين نهري تاجة والتيتار، وهو كورة من كور مدينة طلبيرة على بعد سبعين ميلا إلى الغرب من طليطلة وعقد الرجلان مجلسا عسكريا قوما فيه الموقف العسكري العام، وناقشا خطة المرحلة التالية من الفتح ويكاد يجمع المؤرخون العرب والمسلمون على أن لقاء موسى بطارق لم يكن وديا لأسبابٍ مختلفة، على أن مراجع أخرى تشير إلى اعتراف موسى بن نصير بمكانة طارق بن زياد وفضله في فتح الأندلس، بحيث خاطبه قائلا: لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس، فاستبحه هنيا مريا، فقال له طارق: أيها الأمير، والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهي إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي يعني أنه لن يتوقف عن الغزو والجهاد قبل أن يبلغ بحر الشمال أي المحيط الأطلسي من ناحية شمال شبه جزيرة أيبيريا فيضم كل تلك البلاد لديار الإسلام.

فتح شمال أيبيريا

عاد موسى وطارق إلى طليطلة وقضيا فيها شتاء سنة 95هـ الموافقة لسنتي 713-714م، وأرسل موسى الخبر بالفتح وبالغنائم إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق مع علي بن رباح اللخمي ومغيث الرومي وفي طليطلة سك موسى بن نصير الدراهم والدنانير الأندلسية الأولى، مضروبة باللغة العربية والألفاظ الإسلامية، فجعل على إحدى وجهيها: بسم الله لا إله إلا الله وحده لا إله غيره، وعلى الوجه الآخر: هذا

الدرهم ضرب في الأندلس سنة. ولما حل الربيع من السنة سالفة الذكر، باشر موسى بن نصير وطارق بن زياد تنفيذ خطتهما القاضية بالسيطرة على الأقاليم الأيبيرية الشمالية الممتدة من سرقسطة، في إقليم أرجون شرقا، حتى ساحل جليقية، على المحيط الأطلسي غربا، بهدف إقامة حاجز دفاع يؤمن منجزات المسلمين في جنوب ووسط البلاد،ولا يتم ذلك إلا بالقضاء على الجماعات القوطية اللاجئة إلى تلك الأقاليم،خاصة أن المسلمين كانوا يعلمون أنها المأوى الوحيد الذي التجأ إليه معظم الفارين، لذا كان موسى شديد الحرص على اقتحام تلك المنطقة

وفتحها كانت مدينة سرقسطة أول هدفٍ للحملة، فاقتربت منها القوات الإسلامية، على حين غفلة من أهلها، ففوجئ هؤلاء بالمسلمين يعسكرون أمام مدينتهم، ودب الذعر بينهم، وبعث إليهم موسى بن نصير من أمنهم وأعطاهم عهده، فطابت نفوسهم، وفتحوا أبواب مدينتهم للمسلمين وجالت القوات الإسلامية في نواحي إقليم سرقسطة، مثل وشقة ولاردة وطركونة وبرشلونة.

وأقام موسى مدة في المدينة نظم خلالها أوضاعها الإدارية، وأنشأ فيها مسجدا خطه التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني، مهندس المساجد في الغرب الإسلامي وبسيطرة المسلمين على إقليم سرقسطة طويت صفحة التاريخ القوطي في الأندلس، ولم يبق أمامهم سوى فتح إقليم جليقية الممتد إلى الغرب من سرقسطة حتى المحيط الأطلسي، وهو الإقليم الذي اشتمل على أشتوريس في الوسط وكنتبرية في الشرق وفي الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير يتأهب للزحف نحو ذلك الإقليم، عاد إليه مغيث الرومي قادما من دمشق، وحمل معه أمرا من الخليفة إلى كلٍ من موسى وطارق بالتوقف فورا عن الفتوح والمثول بين يديه، ويبدو أن الخليفة شعر أنهما تجاوزا حد التوسع المتفق عليه رأى موسى بن نصير أن هذا الاستدعاء جاء في وقتٍ غير مناسب،

لأن تعقب القوط لم ينته، وكان حريصا على فتح جليقية والقضاء نهائيا على المقاومة القوطية، كما أن مغادرة المنطقة كانت تعني المغامرة بمستقبل المسلمين في الأندلس كلها؛ لذلك تباطأ في الاستجابة لأوامر الخليفة، وتواطأ مع مبعوثه ليمهله أياما حتى ينتهي من تنفيذ خطته والدخول إلى إقليم جليقية، مقابل أن يكون شريكه في أجر فتحها، ويهبه موضعا في مدينة قرطبة بجميع أرضه،فوافقه مغيث ورافقه في حملته على هذا الإقليم والواقع أن هذا الاتفاق مع مبعوث الخليفة دفع بموسى أن ينشط في حملته هذه، ويسرع من دون أن يضيع وقتا في حصار المدن أو التحايل على من يعصي من سكانها كما كان الشأن من قبل، مما طبع حملته بطابع الشدة والقسوة والعنف المقرون بالتدمير، وهو ما أشارت إليه الروايات الإسلامية، الأمر الذي أدخل الجزع والفزع في قلوب السكان، وهم الذين لم يكونوا أصلا بحاجةٍ إلى من يزيدهم ذعرا ورعبا، فتسارع أعيانهم وكبارهم إلى الطاعة وطلب الأمان والصلح.

غادر موسى بن نصير مدينة سرقسطة متوجها إلى إقليم جليقية لفتحه، واصطحب معه طارق بن زياد وسلك المسلمون طريقا يمتد من الضفة الجنوبية لنهر إبرة والسفوح الجنوبية لجبال كنتبرية، ويمر بالعديد من المدن مثل هارد وبرڤييسكا وأمالية وليون، وينتهي عند مدينة أستورقة وسار طارق بن زياد على رأس قسمٍ من الجيش كطليعة، فتقدم باتجاه مدينة أماية وفتحها ثم فتح مدينة بارد، ودخل القسم الجنوبي من إقليم أشتوريس وفتح مدينته الرئيسية أستورقة ثم اقتفى موسى أثره ليؤمن ما فتحه حتى وافاه في مدينة أستورقة، حسب الخطة الموضوعة سابقا، إذ أشارت الروايات الإسلامية إلى نبأ تلاقيهما فيها،ومنها سارا سويا لإتمام فتح أشتوريس وجليقية، فاخترقا جبال كنتبرية من إحدى ممراتها ودخلا شمال أشتوريس، وسارا بمحاذاة مجرى نهر نالون واقتحما المنطقة، ثم تقدما نحو الشمال حتى أدركا حصن لوجو، الواقع شمال مدينة أوبيط، وفتحاه، وفرت حاميته إلى مكانٍ جبليٍ بأقصى شمالي أشتوريس هو صخرة بلاي، الواقع في جبل أوسبة الوعر في سلسلة جبال كنتبرية، وفي أعلى هذه الصخرة توجد مغارة أو كهف كوڤا دونـگا أقام موسى بن نصير عدة أيامٍ في حصن لوجو، قبل أن يستأنف حملته لفتح ما تبقى من شمال أيبيريا في أقصر وقتٍ ممكن.

لأنه كان عليه أن يستجيب لنداء الخليفة لذلك استقر الرأي على أن يرسل سرية لتعقب الفارين إلى صخرة بلاي في شرق أشتوريس، ثم تواصل التوغل في هذا الإقليم وما يليه شرقا في المنطقة الشمالية لجبال كنتبرية، ثم تنحدر إلى الثغر الأعلى لتوطيد أقدام المسلمين والقضاء على أي أثرٍ للمقاومة هناك، وعين طارق بن زياد على قيادتها، أما هو فكان عليه اقتحام إقليم جليقية الواقع إلى الغرب من أشتوريس تقدم طارق بن زياد إلى صخرة بلاي في أقصى شمال أشتوريس وجال هناك ففتح بلادها ولاذ الأهالي بالصلح والسلم وبذل الجزية، إلا أنه لم يتمكن من فتح الصخرة، غير أنه فتح مدينة خيخون الأشتوريسية الواقعة على ساحل بحر كنتبرية على المحيط الأطلسي، ومن هناك واصل تقدمه شرقا في بلاد البشكنس حتى أدرك الثغر الأعلى ثانية، ولم يفتح إقليم كنتبرية الممتد إلى الشرق من إقليم أشتوريس مباشرة لأنه كان في عجلةٍ من أمره ليلحق بموسى بن نصير وفي تلك الأثناء اقتحم موسى بن نصير جليقية وأدرك فيها مدينة تعرف أيضا باسم لوجو وفتحها وأتاه، وهو فيها، رسولٌ ثانٍ من الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالتوقف فورا عن الفتوح والعودة إلى دمشق، بدون أن يتيح له فرصة فتح ما تبقى من إقليم جليقية، خاصة قسمه الجنوبي المحصور بين نهري مينو شمالا ودويرة جنوبا.

عودة قادة الفتح إلى دمشق

استجاب موسى بن نصير لطلب الخليفة، فغادر مسرح العمليات في الشمال، بعد أن وضع فيها حامياتٍ عسكرية، وانصرف عائدا إلى الجنوب، فدخل طليطلة وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية ثم غادرها إلى قرطبة فأشبيلية ، التي اتخذها عاصمة ولاية الأندلس التليدة، وعين ابنه عبد العزيز واليا عليها طيلة مدة غيابه، وأمره بمتابعة الجهاد لتوطيد الفتح، وترك معه جيشا ونفرا من أنجاد المسلمين ووجوههم منهم حبيب بن أبي عبيدة الفهري حفيد عقبة بن نافع وترك موسى بن نصير الأندلس في أواخر سنة 95هـ 714م، واتجه إلى أفريقية ومعه طارق بن زياد ومغيث الرومي والغنائم والسبي، فوصل إلى قصر الماء على بعد ميلٍ من القيروان في 10 ذو الحجة 95هـ 25 أغسطس 714م، ثم استخلف ابنه مروان على طنجة وابنه عبد الله على القيروان وسار إلى المشرق في أول سنة 96هـ سبتمبر سنة 714م في حاشيةٍ عظيمةٍ وسبيٍ غفير وغنائم كثيرة،

فوصل إلى الفسطاط يوم الخميس في 25 ربيع الأول ديسمبر، وتابع سيره حتى وصل طبريا بفلسطين فوافاه رسولٌ من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب إليه أن يتريث في المسير حتى يكون قدومه وسليمان خليفة، لأن الخليفة الوليد في مرض الموت وأصبح أجله قاب قوسين أو أدنى.

فلو دخل قادة الفتح دمشق وسليمان خليفة، ستؤول إليه الغنائم وشرف الفتح،لكن موسى بن نصير رفض ذلك وتابع سيره حتى دخل دمشق واجتمع بالوليد في مرضه وقدم له تقريرا مفصلا عن إنجازاته بالإضافة إلى الأخماس والغنائم، وأقام عنده حتى توفي الوليد في شهر جمادى الآخرة سنة 96هـ فبراير 715م وما أن خلفه أخوه سليمان حتى قرر محاسبة موسى بن نصير عن ما اعتبره إساءة له عندما رفض طلبه في طبريا فاتهمه باختلاس الأموال، وقضى عليه بردها، وجرده من ألقابه، ووضعه في الإقامة الجبرية، ومال إلى التخلص منه لولا تدخل عمر بن عبد العزيز وتشفعه لموسى بن نصير وسائر القادة، وكذلك فعل عدة مقربين من الخليفة مذكرين إياه بالتضحيات التي قدمها هؤلاء إلى الإسلام والمسلمين،

فتراجع الخليفة عن قراره وعفا عن موسى بن نصير وضمه إلى مستشاريه، واصطحبه معه إلى الحج في سنة 97هـ 716م، وتوفي في المدينة المنورة وقيل في وادي القرى أما طارق بن زياد فقد انقطعت أخباره إثر وصوله إلى الشام، واضطربت أقوال المؤرخين في نهايته، غير أن الراجح أنه لم يول عملا بعد ذلك، ويبدو أنه آثر أن يعيش بعيدا عن الأضواء، ويمضي أيامه في العبادة والزهد بعيدا عن مسرح الشهرة وضجيج السياسة.

فتوحات عبد العزيز بن موسى

لم يمكث عبد العزيز بن موسى طويلا في أشبيلية ، إذ أن مقتضيات الفتوح أجبرته على الخروج لفتح أقاليم غرب الأندلس والمناطق الواقعة في شرق البلاد وشمالها فخرج على رأس جيشٍ يرافقه دليلٌ من رجال جوليان فى اتجاه الأقاليم الغربية، ففتح يابرة الواقعة بالقرب من لشبونة، وشنترين الواقعة على نهر تاجة، وقلمرية قرب ساحل المحيط الأطلسي، وأستورقة المجاورة لجليقية، وتوقف عند حدود هذه المقاطعة الجبلية لينعطف نحو الجنوب حيث لا زالت بعض المواقع الهامة خارج نطاق السيطرة الإسلامية، ففتح مدن رية ومالقة وغيرها من القرى التابعة لها، وسيطر على كامل مقاطعة رية وفر معظم المدافعين القوط والفرنج إلى الجبال للاحتماء بها وأخضع البيرة، وترك فيها حامية عسكرية مشتركة من المسلمين واليهود الذين كانوا متواجدين فيها، ثم توجه نحو مرسية في الشرق ووطد الحكم الإسلامي فيها وأخضعها رسميا للإدارة الأمويةثم عمل عبد العزيز بوصية أبيه، فأرسل الغزوات إلى طركونة وجرونة على الشاطئ الشمالي الشرقي، وإلى بنبلونة في الشمال الشرقي،

وإلى أربونة على خليج ليون من ساحل إفرنجية الجنوبي وبذلك استكملت عمليات الفتوح في عهد عبد العزيز بن موسى، ولم يبق خارج نطاق السيطرة الإسلامية سوى بضعة جيوب، وطويت صفحة العهد القوطي نهائيا في البلاد، وافتتحت صفحة العهد الإسلامي فيها، على أنه يلاحظ أن قسما كبيرا من مناطق أيبيريا الشمالية لم يستمر خاضعا للمسلمين لفترةٍ طويلة بسبب عجز المسلمين عن إخضاع المناطق المنيعة التي تمركز فيها بعض القوط والفرنج الهاربين، فأصبحت نقاط انطلاق الهجمات للإستيلاء على ما جاورهم من بلادٍ دخلت في حظيرة دولة الإسلام.

الباب الثالث

الأندلس تحت الحكم الاسلامى

الأندلس في العهد الإسلامي

قام المسلمون بتقسيم الأندلس لخمس دويلات؛ لتسهيل حكمها وكانت قرطبة أشهر دويلاتها، وقد جمعت الأندلس بسبب موقعها العديد من مختلف الديانات والجنسيات، فاجتمع المسلمون والمسيحيون واليهود معا وتعايشوا بسعادة تحت الحكم الإسلامي، كما اجتمع العرب والبربر والفرنج والقوط، وبسبب كل هذه الثقافات المختلفة أصبحت الأندلس ذات حضارة منوعة ومميزة وطابع خاص.

ونظرا لانتشار العدل بين أفراد الشعب؛ اهتم سكان الأندلس بتعلم العلوم كافة والشعر، فبرعوا فى الهندسة، والزخرفة، والفلك، والطب، والعمارة، والرياضيات، والصيدلة، والفقه، وظهرت أجمل الموشحات الشعرية، وهكذا نافست الأندلس مراكز الدولة العربية كبغداد والقسطنطينية مكانة وعلما، وفي حين كانت شهرة علم الأندلس تزداد بينما كانت الدولة الغربية واقعة في ظلام الجهل.

وما زالت الحضارة الإسلامية حتى وقتنا هذا واضحة المعالم، ولم تستطع السنين محو أثر العرب والمسلمين من الثقافة الأسبانية.

ويتفق المؤرخون والباحثون على أن الفتح الإسلامي للأندلس كان خيرا على تلك البلاد، إذا انتشلها من الفوضى والتنازع السياسي وأحدث فيها ثورة اجتماعية، وقضى على مساوئ العهد القوطي التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون أما نتائج هذا الفتح فمن أهمها:

الأثر السكاني

غير الفتح الإسلامي أوضاع الأيبيريين بشكلٍ عام، إذ بعد زوال الحكم القوطي تجمع زعماء القوط في منطقة جليقية في الشمال الغربي، وأبقى المسلمون على الذين ساعدوهم فأعيد جوليان إلى حكم سبتة، وردت إلى أولاد غيطشة أموالهم وممتلكاتهم وضياعهم، كما سمح لبعض النبلاء والإقطاعيين، في بعض المناطق، بالاحتفاظ بأراضيهم، أما الأراضي التي تركها أصحابها بفعل الفرار أو القتل في المعارك، فقد صادرها المسلمون وجرى توزيعها عليهم وقد ترك هذا الأمر بدوره بعض النتائج الكبيرة من الناحية الاجتماعية حيث أدت مصادرة ممتلكات كثيرٌ من النبلاء، بالإضافة إلى ممتلكات الكنيسة، إلى زيادة عدد صغار المزارعين زيادة ملحوظة واستقر المسلمون من عربٍ وبربرٍ في الأندلس في مناطق مختلفة إلى جانب القوط

أو في تجمعاتٍ منفصلة بسبب العصبيات القبلية التي كانت قائمة،مما حول المجتمع الأيبيري الإسلامي إلى مجتمعٍ فسيفسائيٍ من الناحية السكانية وكان العرب الذين استقروا في الأندلس ينتمون إلى عصبيتان متخاصمتان: القيسية واليمنية، كما كانوا ينقسمون إلى قسمين من حيث تاريخ نزولهم الأندلس، فعرف القدماء منهم الذين جاؤوا في موجات الفتوح الأولى مع طارق بن زياد وموسى بن نصير بالبلديين أو أهل البلد، وكان منهم أيضا الشاميون الذين جاؤوا مع بلج بن بشر القشيري، وعرفوا بهذا الاسم لأنهم كانوا يسكنون الشام قبل مجيئهم إلى الأندلس، مثل حمص ودمشق والأردن وفلسطين وقد نزل العرب في الأندلس على الشواطئ الشرقية والشرقية الجنوبية، وهي الشواطئ الدافئة التي تشبه في مناخها البلاد التي جاؤوا منها، على أن جماعاتٍ منهم نزلت في غرب الأندلس وفي شمالها وكان البربر المستقرين في الأندلس أيضا ينتمون إلى فرعين كبيرين:البتر والبرانس، وكان بين ذينك الفرعين من العصبية مثل ما كان بين القيسية واليمنية.

ونزل البربر في المناطق الجبلية من الأندلس، في الوسط والغرب لشبه تلك المناطق بالبلاد التي جاؤوا منها في جبال أطلس وبقي الأهالي الأصليين للبلاد، وهم القوط، منتشرين في مختلف المدن والمناطق،واستمر بعض الرومان والفرنجة يسكنون البلاد أيضا، وهؤلاء سماهم المسلمون جميعا النصارى ما داموا قد اختاروا البقاء على المسيحية، ولم يفرقوا بين أعراقهم، وكذلك سموهم المعاهدين لأنهم تعاهدوا مع المسلمين على الصلح والسلام زمن الفتح ونتج عن التعدد العرقي في الأندلس بعيد الفتح الإسلامي أن كثر اختلاط الأنساب، فتزوج بعض العرب بالبربر وتزوج بعض البربر بالعرب، كما تزاوج المسلمون والقوط والفرنجة،وعرف أبناء الزيجات المختلطة هذه باسم المولدون، كما أطلقت تلك التسمية على أبناء القوط والفرنجة والرومان الذين اعتنقوا الإسلام وكان الغالب أن يتزوج العربي امرأة بربرية أو مولدة وكذلك الحال بالنسبة للبربري، ولم يكن من المألوف أن تتزوج العربية مولدا، لأن عدد العرب، وبالتالي عدد العربيات، كان في الأندلس قليلا مقارنة بعدد البربر والقوط الذين أسلموا وكان المولدون يتخذون عادة أسماء عربية ويتلقبون بالألقاب الشرقية، ثم سرعان ما اتخذوا اللغة العربية والعادات العربية والزي العربي تمييزا لأنفسهم من الذين لم يدخلوا في الإسلام.

الأثر الديني

منح المسلمون سكان البلاد الحرية الدينية، وعينوا لهم قضاة منهم وحكاما محليين، يقضون في النزاعات فيما بينهم ويجبون الضرائب منهم. وأحسن المسلمون معاملة أهل البلاد الذين تعرضوا للاضطهاد في العهد القوطي، فسمح للمزارعين أن يمارسوا حياتهم الزراعية على حسابهم على أن يؤدوا الخراج وسارع الكثير من رقيق الأرض والعبيد إلى اعتناق الإسلام كما دان به عددٌ كبيرٌ من أهالي الطبقات الدنيا وسمح المسلمون لليهود، الذين ساندوهم، بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ومنحوهم حرية التملك واختص كثيرٌ منهم في العلوم والآداب والطب والفلسفة، وتبوأوا مراكز سياسية وإدارية حساسة، فكانوا أكثر الطوائف استفادة من الفتح وجعل المسلمون لنصارى الأندلس تنظيمٌ دينيٌ يشرف عليه رجال الدين منهم: فكان لهم ثلاث أبرشيات في طليطلة وأشبيلية وماردة، كما كان لهم ثماني عشرة أسقفية، أما الأديرة فكانت كثيرة جدا إذ كان منها حول قرطبة وحدها أكثر من خمسة عشر ديرا وبنى المسلمون المساجد في كل مكان نزلوا فيه، غير أنهم في بعض الأحيان كانوا يجعلون من الكنائس مساجد في الأمكنة التي دخل جميع أهلها من القوط والفرنج في الإسلام،

أو كانوا يقسمون الكنائس بين الذين دخلوا في الإسلام وبين الذين اختاروا أن يبقوا على المسيحية من أهل البلد الواحد وقد هدم المسلمون عددا من الكنائس التي كان أهلها يتخذون منها حصونا يحاربون من ورائها.

كما سمحوا أحيانا ببناء كنائس جديدة ومع مرور الوقت أصبح الإسلام أكثر الديانات انتشارا في الأندلس بسبب إقبال القوط وغيرهم على اعتناقه، وكان أهل الأندلس في زمن الفتح والولاة على مذهب السلف وأهل الحديث، أي أنهم كانوا يقلدون الصحابة من غير تقيد بمذهبٍ فقهي مخصوص لأن المذاهب الفقهية لم تكن قد وجدت بعد، على الرغم من أن المؤرخ أحمد بن محمد المقري قال أن أهل الأندلس كانوا على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ الفتح الإسلامي للبلاد لكن من المتفق عليه بين المؤرخين المحدثين أن هذا خطأٌ وقع فيه المقري، لأن الإمام عبد الرحمٰن الأوزاعي ولد سنة 88هـ 707م، أي قبل فتح الأندلس بأربع سنوات وغلب التدين والتقوى على النفوس في الأندلس، وكانت روح الجهاد متمكنة في الأهالي

،وبالأخص على القوط الذين دخلوا في الإسلام، على أنه كان ثمة جماعات من القوط لم يدخلوا في الإسلام إلا جرا لمنفعة، ثم أن نفرا من هؤلاء كانوا يسكنون في جليقية فارتدوا عن الإسلام لما غزتهم الممالك المسيحية في الشمال.

الأثر الإداري والسياسي

بعد تمام فتح الأندلس جعلت ولاية من ولايات الدولة الأموية، وأصبح عبد العزيز بن موسى بن نصير أول والٍ عليها، فكانت تلك فاتحة العهد الذي عرف باسم عصر الولاة في الأندلس، تمييزا له عن عهد الإمارة ثم الخلافة التي قامت في البلاد لاحقا ولم يعرف في عصر الولاة حكومة بالمعنى الحديث ولا بالمعنى الذي كان معروفا في الدولة الأموية في ذلك الحين، أو أيام عمر بن الخطاب من قبل: تنظيما للجيش وللمال ولسجلات الدولة والدواوين على الأقل بل كانت حكومة عسكرية استبدادية لأسباب مختلفة، منها بعد الولاية عن عاصمة الخلافة دمشق، ولأن الكثير من نواحي الأندلس كان عبارة عن ثغورٍ بحاجةٍ دائمةٍ إلى المرابطة والاستعداد للحرب،

ولقلة المسلمين فيها بداية، فكان الوالي هو الحاكم والقائد والقاضي وكان الوالي يعين عمالا على المدن المختلفة مسئولين أمامه وحده، أما إذا غادر العاصمة لشأنٍ من شئونه فإنه كان يعين خليفة له فيها ثم إن هؤلاء العمال كانوا في الأكثر أقارب للوالي أو أصدقاء له أو من أهل عصبيته وترك المسلمون للنصارى في الأندلس حرية سياسية واسعة، فتركوا لهم القضاء فيما بينهم وشيئا من الإدارة المحلية المستقلة الخاصة بهم،ولا ريب في أن حياة النصارى الدينية واستمرار الأبرشيات والأسقفيات في قواعد الأندلس المهمة مع وجود لغة لهم لا يعرفها المسلمون ولا يعرفون مثلها قد سهل لهم إنشاء مثل هذه الحكومة وجعل للنصارى قضاءٌ خاصٌ بهم يحكمون فيه بموجب القانون القوطي، وكان قاضيهم يسمى قاضي النصارى وقاضي العجم، وكان الحاكم فى أمرهم يسمى القمص وكذلك جعل لليهود تنظيمٌ قضائيٌ وإداريٌ على غرار ما كان للمسيحيين.

تأسيس مملكة أشتوريس

كان أحد النبلاء ذوي الأصل القوطي المنسحبين إلى شمال أيبيريا، المدعو بلاي پلاجيوس، أول من جمع فلول النصارى بالأندلس، ووضع أسس أول مملكة مسيحية أيبيرية شمالية هي مملكة أشتوريس، بعد أن فشل المسلمون فى ضم أقاصي شمال شبه جزيرة أيبيريا إلى ديار الإسلام ، وسميت الصخرة التي احتمى فيها بقايا القوط سالفة الذكر باسمه ومن تلك المنطقة أخذت حركات التمرد والهجوم ضد الحاميات الإسلامية المقيمة في أشتوريس تنظم وترسل بشكلٍ دوري ولما توفي بلاي خلفه ابنه فاڤيلا الذي لم يكن على مستوى والده في الهمة والنشاط، فكان عابثا يتحاشى القيام بأي عملٍ عسكريٍ، وقضى نحبه في إحدى رحلات الصيد حيث هاجمه دبٌ ومزقه، ولم يترك وريثا، فخلفه ألفونسو الأول ابن الدوق بطرس الملقب بالكاثوليكي، وهو من أصلٍ قوطيٍ وتمكن ألفونسو الأول من توحيد الجبهة المسيحية في شمال أيبيريا ضد المسلمين.

ليكون بهذا المؤسس الحقيقي لتلك المملكة التي قامت في وقتٍ مبكرٍ من حكم المسلمين، وفي السنوات اللاحقة من فترة حكمه التي دامت ثمانية عشر عاما، تمكن من استغلال النزاعات العرقية والعصبيات القبلية التي نشبت بين العرب والبربر في إقليمي جليقة وأشتوريس ونجم عنها نزوح العرب إلى المناطق الجنوبية من البلاد، ومن ثم حلول القحط الذي جعل البربر يضطرون إلى النزوح عن تلك الأنحاء.

ليقوم بتهجير ما تبقى من المسلمين في شمال الأندلس عبر استخدامه أسلوب حرب العصابات واستغلاله لطبيعة الشمال الأيبيري الوعرة لإسقاط المسلمين في شركٍ تلو الآخر والقضاء عليهم واعتبر الكثير من المؤرخين، وبالأخص الغربيين، أن ذلك شكل بداية حروب الاسترداد التي أدت في نهاية المطاف إلى سقوط الأندلس.

أمورٌ خلافية

مصير لذريق: على الرغم من أن أغلب المصادر العربية والإسلامية تشير إلى أن لذريق قتل في معركة وادي لكة بأن غرق في المستنقع أثناء هربه، وأن الدليل على ذلك كان العثور على فرسه الأبيض وأحد خفيه طافٍ فوق الطين الأسود، أو أنه قتل في معركته التالية مع المسلمين، إلا أن عدم العثور على جثته أثار القصص والأساطير المنسوجة حوله طيلة قرونٍ في الأندلس وتضاربت الآراء حول مصيره الفعلي، فظهرت في الممالك المسيحية التي لم تخضع للمسلمين الملاحم التي ظل الناس يتناقلونها على مدى أجيال، وفحواها أن لذريق سيعود لتخليص البلاد من أيدي المسلمين على إن إحدى المخطوطات القوطية العائدة إلى القرن التاسع الميلادي تقول بأنه عثر في قرية إقطانية الكائنة في البرتغال المعاصرة على شاهد قبرٍ نقش عليه عبارة هنا يرقد لذريق، ملك القوط فإن صح هذا يحتمل أن يكون لذريق قد أمضى أيامه الأخيرة متخفيا إلى أن وافته المنية، أو أن جنوده سحبوا جثته من ميدان المعركة ودفنوه بعيدا.

الخلاف بين موسى بن نصير وطارق بن زياد: تذكر الكثير من الروايات التاريخية الإسلامية أن خلافا حصل بين موسى بن نصير وطارق بن زياد أثناء سير عمليات الفتوح، وترجع أمر الخلاف إلى حسدٍ دب في نفس موسى بن نصير على مولاه طارق بفعل ما حققه من نجاح، ويجمع المؤرخون المسلمون القدماء أن موسى بن نصير خرج من القيروان مغيظا على طارق،وعلى أن توغل الأخير بالفتح في بلادٍ مجهولة قد غمه ويذكر ابن عبد الحكم أن موسى أخذ طارقا فشد وثاقه وهم بقتله، ويذكر صاحب كتاب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير وضع السوط على رأس طارق بن زياد ووبخه فيما كان من خلاف رأيه، وأما ابن الأثير فجمع ذلك وتردد في روايته، ثم قال أن موسى حبس طارقا وفق بعض الآراء ولم يحبسه وفق آراءٍ أخرى، وأنه لما قابله ضربه بالسوط على رأسه ووبخه بسبب مخالفته أوامره كما قيل أنه طالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها ويرى المؤرخون العرب والمسلمون المعاصرون أن هذه الروايات مبالغٌ فيها وأنها نظرت إلى مشروع الفتح الضخم من زاويةٍ شخصيةٍ ضيقةٍ،

إذ لا شك أن كلا من القائدين اهتم بمصلحة المسلمين العليا وسلامة أرواحهم قبل أي شيءٍ آخر، كما أن موسى بن نصير لم يغمط حق طارق في الفتح أو يقلل من شأنه، وإنما اعترف له بمكانته، وكان يكن له كل محبة وتقدير من واقع مخاطبته إياه بأن الخليفة الوليد لا بد وأنه سيمنحه الأندلس ليكون واليا عليها، كما أنه لم يبعده عن مسرح الأحداث، إنما اشترك معه في إتمام الرسالة، وهي فتح ما تبقى من أقاليم في الأندلس ونشر الإسلام في ربوعها.

إحراق طارق بن زياد للسفن وخطبته في المسلمين: من الأمور التي كانت محل جدلٍ فيما يرتبط بتاريخ طارق بن زياد، مسألة حرقه للسفن التي عبر عليها للأندلس ليقطع طريق العودة على جنوده، ويدفعهم للإستبسال في القتال أمام العدو، وهي رواية محل شك نظرا لأنها لم تذكر في الروايات العربية إلا في كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي الذي عاش بعد الفتح بنحو خمسة قرون وكذلك مسألة خطبته التي قالها قبل معركة وادي لكة، إذ هناك شك في نسبتها إلى طارق، نظرا لأنها لم ترد في أقدم المصادر العربية التي تناولت فتح الأندلس وهي كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم أو فتوح البلدان للبلاذري، كما لم يذكرها ابن الأثير ولا ابن خلدون، وذكرها المقري دون أن يذكر عمن نقلها.

قصة اغتصاب ابنة جوليان: الكثير من المصادر الحديثة الغربية عموما والأسپانية خصوصا لا تميل إلى الأخذ بالرواية القائلة أن اغتصاب لذريق لابنة جوليان قد يدفعه لخيانة مملكة القوط ودفع المسلمين إلى غزوها، وقد فند الأدب المسيحي الأوروپي المتأخر هذه الرواية معتبرا أنه فى حال كان لذريق يرتبط فعلا بصداقة آل غيطشة وينقم على لذريق بوصفه مغتصب السلطة، فكيف يعقل أن يرسل ابنته إلى بلاط عدوه؟ يتفق الكثير من المؤرخين المسلمين المعاصرين مع المؤرخين الغربيين على أن تلك القصة يحتمل أن تكون ملفقة، وسندهم في ذلك أنها روايةٌ تشبه رواية ابنة قيصر الروم مع امرؤ القيس عندما ذهب الأخير إلى الإمبراطور البيزنطي يستنجد به ويطلب منه جيشا يحارب به بني أسد، فأحب ابنته واتصل بها، فغيظ الإمبراطور وأهدى امرؤ القيس حلة مسمومة تقرح منها جسده ومات فواضع القصتين عربيٌ مسلم نظر إلى الموضوع من وجهة نظر البيئة الشرقية البدوية العربية الإسلامية، بينما يوضح التاريخ أن الفسق والفجور كانا سائدين في بلاد الروم وبلاد القوط إلى درجة أن مثل هذا الحادث لو حدث فعلا لما أمكن أن يثير في أيامه مثل الضجة المذكورة

ولا أن يهز وجدان الذين يمسهم حدوثه مثل هذه الهزة أضف إلى ذلك أن المسلمين كانوا يبغون الجهاد ونشر الإسلام من البداية، ولا يعقل أن يكون فتحهم للأندلس نتيجة غضبة لرجل، كائنا من كان ذلك الرجل.

عزم موسى بن نصير فتح أوروبا: زعم بعض المؤرخين أن موسى بن نصير كان ينوي بعد فتحه شمال الأندلس أن يقطع جبال البرتات إلى بلاد الفرنجة ليعود والشاطئ الشمالي للبحر المتوسط مارا بإيطاليا واليونان وآسيا الصغرى حتى يصل إلى الشامويقول المؤرخون المعاصرون أنه لا ريب في أن عزم موسى بن نصير على مثل هذه المغامرة، لو صحت الرواية، يدل على جهله بطبيعة البلاد التي كان عليه أن يمر بها وبأحوالها السياسية.

العثور على مائدة سليمان بن داود: أشارت عدة مصادر إسلامية وغربية أن طارق بن زياد عثر في قلعة تبعد مسيرة يومين من طليطلة تدعى قلعة فراس على مائدةٍ من ذهب مكللة بالدر والياقوت وضروب الجواهر، وكانت مطوقة بثلاث أطواق: طوق من ياقوت وطوق من زبرجد وطوق من لؤلؤ،

وقيل له وفق تلك الروايات أن المائدة وصلت إلى طليطلة بعد أن غزا الرومان بيت المقدس وحملوا ما كان فيها من مكارم الأنبياء إلى روما، فحمل أساقفة النصارى مائدة النبي سليمان بن داود إلى مدينة الإسكندرية، فلما غزا عمرو بن العاص مصر هربوا بها إلى مدينة طرابلس، فلما نزل عمرو بن العاص لبده هرب بها الروم إلى قرطاج، ولما دخل المسلمون أفريقية هربوا بها إلى طليطلة فأمر طارق بن زياد بزبرجدها وقلع رجلا من أرجلها بما فيها من در وياقوت وعمل لها رجلا غيرها وفى المقابل يعتبر المؤرخون المعاصرون أن ما عثر عليه طارق بن زياد في الواقع لم يكن سوى قاعدة قراءة يوضع عليها الإنجيل مفتوحا لقراءته، أو مذبحا لكنيسة طليطلة حمل إلى ذلك المكان من قبل القساوسة الفارين، ثم اضطروا إلى تركه عند قلعة فراس حين شعروا باقتراب المسلمين.

الباب الرابع

حكام الأندلس بين القوة والضعف

الدولة الأموية في الأندلس

إمارة إسلامية أسسها عبد الرحمن الداخل عام 138 هـ/756 م في الأندلس وأجزاء من شمال أفريقيا وكانت عاصمتها قرطبة، وتحولت إلى خلافة بإعلان عبد الرحمن الناصر لدين الله نفسه في ذي الحجة 316 هـ/يناير 929م خليفة قرطبة بدلا من لقبه السابق أمير قرطبة،وهو اللقب الذي حمله الأمراء الأمويون منذ أن استقل عبد الرحمن الداخل بالأندلس وتميزت الدولة الأموية في الأندلس بنشاط تجاري وثقافي وعمراني ملحوظ، حتى أصبحت قرطبة أكثر مدن العالم اتساعا بحلول عام 323 هـ/935م،كما شهدت تشييد الكثير من روائع العمارة الإسلامية في الأندلس ومنها الجامع الكبير في قرطبة كما شهدت فترة حكم الأمويين نهضة في التعليم العام، جعلت عامة الشعب يجيدون القراءة والكتابة في الوقت الذي كان فيه علية القوم في أوروبا لا يستطيعون ذلك وقد استمرت الدولة الأموية في الأندلس رسميا حتى عام 422 هـ/1031م، حيث سقطت الخلافة وتفككت إلى عدد من الممالك بعد حرب أهلية بين الأمراء الأمويين الذين تنازعوا الخلافة فيما بينهم، مما أدى بعد سنوات من الاقتتال، إلى تفكك الخلافة إلى عدد من الممالك المستقلة.

قضى عبد الرحمن الداخل سنوات حكمه في تثبيت أركان دولته، والقضاء على الثورات الداخلية التي اندلعت في كافة أرجاء الأندلس، كما عمل على تأسيس جيش قوي والاهتمام بالتعمير والتعليم والقضاء، ليترك الأندلس لخلفائه من بعده ولاية مستقرة بعد وفاته، نجح ابنه هشام الرضا وحفيده الحكم الربضي في الحفاظ على وحدة أراضي الدولة، ونجحا في التصدي لمحاولات الممالك المسيحية في الشمال للتوسع جنوبا ورغم ذلك النجاح الخارجي على الصعيد العسكري، إلا أن الدولة كادت أن تسقط إثر ثورة بعض أهل قرطبة على الحكم بن هشام، إلا أنه نجح في القضاء على تلك الثورة الداخلية نتج عن حالة الاستقرار السياسي، أن ازدهرت حركات الآداب والعلوم والعمارة والفن في الأندلس في عهد عبد الرحمن بن الحكم لتبلغ مرحلة متقدمة من المدنية، وأصبحت مركزا حضاريا كبيرا في غرب العالم الإسلامي وتطورت الدولة عسكريا، فنجحت في التصدي لمحاولات النورمان لغزو موانيء الأندلس بحرا عام 230 هـ.

كبوة الدولة: في عهد الحاجب المنصور وصلت الدولة الأموية في الأندلس إلى أقصى امتداد لها تلى تلك المرحلة مرحلة من الاضطراب في عهد محمد بن عبد الرحمن وولديه المنذر وعبد الله نتج عن ذلك تعرض الإمارة إلى عدد من الثورات الداخلية من المولدين والمستعربين والبربر وبعض القبائل العربية، التي نجحت في تأسيس إماراتهم شبه المستقلة التي كانت لا تخضع لسلطة الدولة إلا بالاسم بنو قسي وبنو تجيب ومحمد بن عبد الملك الطويل وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في الشمال، وأخطرهم عمر بن حفصون الذي تمرد على الدولة في الجنوب إضافة إلى الهجمات الخارجية من النورمان والممالك المسيحية في الشمال في محاولة استعادة الأراضي التي دخلت تحت الحكم الإسلامي وفي ظل حالة التمرد الداخلية والهجمات الخارجية ضعفت سلطة الدولة على أراضيها حتى انحسرت سلطة الأمير عبد الله بن محمد فقط على قرطبة وأحوازها.

عصر القوة بدأ مع تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الحكم عام 300 هـ، استعادت البلاد وحدتها السياسية وقوتها العسكرية وهيبتها، بعد أن خاض حروبا طويلة استطاع من خلالها استعادة السيطرة على البلاد تحت السلطة المركزية في قرطبة بل وامتدت سلطة الأمويين إلى أجزاء من شمال المغرب الأقصى الذي تسابق أمرائه في الدخول في ولاء الأمويين وأمام خطر نشأة الدولة الفاطمية في شمال أفريقية، أعلن عبد الرحمن بن محمد في عام 316 هـ/929 م نفسه خليفة على الأندلس، وتلقب بالناصر لدين الله، ليقوي مركزه الديني في مواجهة الدولة الفاطمية في شمال أفريقية ولمواجهة هذا الخطر حصن الناصر الموانئ الجنوبية للأندلس، وضم موانئ المغرب المواجهة للأندلس في مليلة وسبتة وطنجة، إضافة إلى دعم البربر المعادين للفاطميين في المغرب ماديا وعسكريا، واستطاع عبد الرحمن الناصر لدين الله التصدي لأطماع الممالك المسيحية في الشمال وعرفت البلاد أوجها الثقافي في عهد ابنه الحكم الذي واصل سياسات أبيه، وكان عهده عهد ثقافة وعمران إلا أن الحكم المستنصر بالله أخطأ حين اختار ابنه الوحيد الطفل هشام المؤيد بالله لولاية عهده الذي استغل بعض رجال الدولة كالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي

وصاحب الشرطة محمد بن أبي عامر صغر سنه وعدم قدرته على الحكم وفرضوا على الخلافة وصاية أم الخليفة صبح البشكنجية، واستأثروا هم بكل السلطات ثم انفرد محمد بن أبي عامر بكل السلطات بعد أن تخلص من كل شركائه في الحكم الواحد تلو الآخر وحجر على الخليفة الطفل، لتبقى بذلك السلطة الإسمية فقط للخليفة، والحكم الفعلي لابن أبي عامر الذي تلقب بعد ذلك بالحاجب المنصور.

استطاع الحاجب المنصور أن يؤسس دولة داخل الدولة حتى أن بعض المؤرخين سماها الدولة العامرية تميزت تلك الفترة بوجود تطور اجتماعي جديد بسيطرة البربر على المناصب القيادية في الجيش وكثرة عددهم واختفاء القيادة العربية من الجيوش واستمرت سيطرة العامريين على الحكم طوال عهد الخليفة هشام المؤيد بالله، حيث خلف الحاجب المظفر أباه المنصور عام 392 هـ في كافة سلطاته ومناصبه، ثم خلفه أخاه شنجول بعد وفاته عام 399 هـ، الذي لم يمض شهر على توليه الحجابة، حتى أجبر الخليفة على إعلانه ولاية العهد لشنجول.

نهاية الدولة : أثار ذلك حنق الأمويين في الأندلس بعد أن رأوا في ذلك اغتصاب لحقهم في حكم الأندلس، واستطاع أحد أمرائهم يدعى محمد بن هشام أن يدير انقلابا في جمادى الأولى 399 هـ على حكم المؤيد وشنجول، ويطيح بهما من سدة الحكم، ويعلن نفسه الخليفة الجديد وحرص المهدي بالله على التنكيل بالعامريين والبربر الذين كانوا عماد جيش الحاجب المنصور، مما دعا الفتيان العامريين إلى الفرار إلى شرق الأندلس، وتأسيس إمارة في تلك الأرجاء، بينما التف البربر حول أمير أموي آخر يدعى سليمان بن الحكم الذي ثار على المهدي بالله، ونجح في اقتلاعه من منصبه وإعلان نفسه خليفة في ربيع الأول 400 هـ، لتدخل الأندلس فترة من القلاقل تصارع فيها الأمويين والبربر والحموديين على حكم الأندلس،استمرت حتى عام 422 هـ حيث سقطت الدولة الأموية في الأندلس نهائيا، وتفتت إلى دويلات صغيرة عرفت تاريخيا بدول الطوائف.

ملوك الطوائف هي فترة تاريخية في الأندلس بدأت فى حدود عام 422 هـ لما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور سقوط الدولة الأموية في الأندلس، مما حدا بكل أمير من أمراء الأندلس ببناء دويلة منفصلة، وتأسيس أسرة حاكمة من أهله وذويه وفي العقدين 1020، 1030 سقطت الخلافة بسبب ثورة الأمازيج ونشأة ملوك الطوائف الذين قسموا الدولة إلى 22 دويلة، منهم غرناطة وأشبيلية والمرية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة والبرازين والبداجوز وبلنسية ودانية والبليار ومورور وبينما ورثت تلك الدويلات ثراء الخلافة، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل منهم فريسة لمسيحيي الشمال، ووصل الأمر إلى أن ملوك الطوائف كانوا يدفعون الجزية للملك ألفونسو السادس، وكانوا يستعينون به على أخوانهم.

ممالك الطوائف وقد شهدت هذه الفترة تفكك غريب وهى كالتالى:

الفترة الأولى القرن 11

- **طائفة شنتمرية الشرق: 1011-1104 المرابطون**
- **طائفة الجزيرة الخضراء: 1035-1058 إلى إشبيلية**
- **طائفة ألمرية: 1011-1091 حتى استولى عليها المرابطون**
- **طائفة ألبونت: 1009-1106 حتى استولى عليها المرابطون**
- **طائفة أركش: 1011-1068 حتى استولى عليها بنو عباد في إشبيلية**
- **طائفة بطليوس: 1009-1094 حتى استولى عليها المرابطون**
- **طائفة قرمونة: 1013-1091 حتى استولى عليها المرابطون**
- **طائفة سبتة: 1061-1084 إلى غرناطة**
- **طائفة قرطبة: 1031-1091 إلى إشبيلية**
- **طائفة دانية والجزائر الشرقية: 1010/1012-1076 حتى ضمتها طائفة سرقسطة عام 468 هـ، فيما حافظت الجزائر الشرقية على استقلالها حتى ضمها المرابطون عام 509 هـ.**

- طائفة غرناطة: 1013–1090 حتى استولى عليها المرابطون
- طائفة خيريكا: القرن th11 إلى توليدو
- طائفة لشبونة: 1022 –؟ بطليوس
- طائفة لوركا: 1051–1091 حتى استولى عليها المرابطون
- طائفة مالقة: 1026–1058/1057 حتى ضمتها مملكة غرناطة؛ 1073–1090 حتى استولى عليها المرابطون
- طائفة مايوركا: 1018–1203 للموحدون
- طائفة ميرطولا: 1033–1091 حتى استولى عليها المرابطون
- طائفة مولينا : –1100 أراجون
- طائفة مورور: 1013–1066 إلى إشبيلية
- طائفة مرسية: 1011/1012–1065 استقلت عن طائفة بلنسية، وحافظت على استقلالها حتى عام 481 هـ، حيث ضمتها طائفة إشبيلية.

- **وساجونتو : 1086-1092 حتى استولى عليها المرابطون**

- **طائفة لبلة: 1023/1024-1091 سقطت في أيدي قوات المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية عام 445 هـ.**

- **طائفة رندة: 1039/1040-1065 ضمها المعتضد بن عباد إلى مملكة إشبيلية عام 457 هـ.**

- **طائفة رويدا: 1118-1130 لأراجون**

- **طائفة ولبة وجزيرة شلطيش : 1012/1013-1051/1053 ضمها المعتضد بن عباد إلى مملكة إشبيلية عام 443 هـ.**

- **طائفة شنتمرية الغرب: 1018-1051 ضمت إلى إشبيلية**

- **سيجوربي: 1065-1075 حتى استولى عليها المرابطون**

- **طائفة اشبيلية: 1023-1091 حتى استولى عليها المرابطون**

- **طائفة شلب: 1040-1063 إلى إشبيلية**

- طائفة طليطلة: 1085-1031/1010 قشتالة
- طائفة طرطوشة: 1060-1039 لسرقسطة؛ 1092-1082/1081 لطائفة دانية والجزائر الشرقية
- طائفة بلنسية: 1094-1011/1010 أصبحت تابعة لقشتالة ولكن المتحالفة مع بني هود
- طائفة سرقسطة: 1046-1018 إلى بني Tujib ، ثم لبني هود ؛ 1110-1046 إلى المرابطين؛ سنة 1118 إلى أراجون
- الفترة الثانية القرن 12
- طائفة ألمرية: 1147-1145 لفترة وجيزة إلى قشتالة ثم الموحدون
- طائفة أركش: 1143 ضمت إلى الموحدون
- طائفة بطليوس: 1150-1145 ضمت إلى الموحدون
- البجا وإيفورا: 1150-1114 ضمت إلى الموحدون
- طائفة قرمونة: التواريخ ومصير غير مؤكد أو غير معروف

- قسنطينة وHornachuelos: التواريخ ومصير غير مؤكد أو غير معروف
- طائفة غرناطة: 1145 ضمت إلى الموحدون
- غواديكس وبازا: 1145–1151 ضمت إلى طائفة مرسية
- جيان: 1145–1159 طائفة مرسية؛ 1168 ضمت إلى الموحدون
- خيريز دي لا فرونتيرا: 1145 ضمت إلى الموحدون
- طائفة مالقة: 1145–1153 ضمت إلى الموحدون
- ميرطولا: 1144–1145 ضمت إلى بطليوس
- طائفة مرسية:1145 ضمت إلى طائفة بلنسية؛ 1147–1172 الموحدون
- طائفة لبلة: 1145–1150؟ ضمت إلى الموحدون
- بورتشينا : التواريخ ومصير غير مؤكد أو غير معروف
- طائفة رندة: 1145 ضمت إلى المرابطون
- شنترين:؟ –1147 ضمت إلى البرتغال
- سيجورا : 1147 –؟ مصير مجهول

- **شلب: 1144–1155 ضمت إلى الموحدون**
- **تافيرا: التواريخ ومصير غير مؤكد أو غير معروف**
- **تيخادا: 1145–1150 ضمت إلى الموحدون**
- **طائفة بلنسية: 1145–1172 ضمت إلى الموحدون**
- **الفترة الثالثة القرن 13**
- **أرخونا: 1232–1244 ضمت إلى قشتالة**
- **بايزا: 1224–1226 ضمت إلى قشتالة**
- **طائفة سبتة: 1233–1236 ضمت إلى الموحدون، 1249–1305 ثم إلى المرينيون**
- **طائفة دانية والجزائر الشرقية: 1224–1227 ؟ ضمت إلى الموحدون**
- **لوركا: 1240–1265 ضمت إلى قشتالة**
- **مينوركا: 1228–1287 ضمت إلى أراجون**
- **طائفة مرسية: 1228–1266 ضمت إلى قشتالة**
- **طائفة لبلة: 1234–1262 ضمت إلى قشتالة**

- **طائفة أريولة: 1239/1240–1249/1250 ضمت إلى مرسية أو قشتالة**

- **طائفة بلنسية: 1228/1229–1238 ضمت إلى الأراجون**

- **بالإضافة إلى ذلك، ولكن لا تعتبر عادة من ملوك الطوائف، وهي**

- **مملكة غرناطة: 1237–1492 ضمت إلى تاج قشتالة**

- **البشرات: 1568–1571 ضمت إلى قشتالة أسبانيا**

ومن ملوك الطوائف(بنو الأفطس – بنو غانية – بنو عامر – بنو عباد – بنو تجيب – بنو الأغلب – بنو رزين – بنو الصمادح – بنو ذي النون – بنو القاسم – بنو زيري – بنو جهور – – بنو حمود – بنو هود – بنو الأحمر)

موقف المتوكل على الله بن الأفطس

كان كل ملوك الطوائف الموجودون في هذه الفترة يدفعون الجزية لألفونسو السادس ومن معه إلا أمير مملكة بطليوس المتوكل بن الأفطس، كان لا يدفع جزية للنصاري، فأرسل له ألفونسو السادس رسالة شديدة اللهجة يطلب فيها منه أن يدفع الجزية كما يدفعها إخوانه من المسلمين في الممالك الإسلامية المجاورة فأرسل له رسالة يقول فيها : وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير وأحكام العزيز القدير يرعد ويبرق ويجمع تارة ثم يفرق، ويهدد بجنوده المتوافرة وأحواله المتظاهرة، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم الإسلام وأظهر بهم دين نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ،ولا يخافون، بالتقوى يعرفون، وبالتوبة يتضرعون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليميز الله الخبيث من الطيب ويعلم المنافقين، أما تعييرك للمسلمين فيما وهي من أحوالهم فبالذنوب المركومة ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك لعلمت أي مصاب أذقناك كما كانت آباؤك تتجرعه وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك لما أجبر أجدادك على دفع الجزية حتى أهدي جدك أحد بناته إليه

، أما نحن إن قلت أعدادنا وعدم من المخلوقين استمدادنا فما بيننا وبينك بحر نخوضه ولا صعب نروده، ليس بيننا وبينك إلا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك وجلاد تبصره في ليلك ونهارك وبالله وملائكته المسومين نتقوى عليك ونستعين ليس لنا سوي الله مطلب ولا لنا إلى غيره مهرب وما تتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين نصر عليكم فيا لها من نعمة ومنة أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض مما به هددت وفرج يفرج بما نددت ويقطع بما أعددت.

وختم رسالته وأرسلها إلى ألفونسو السادس، الذي لم يستطع أن يرد، وما استطاع أن يرسل له جيشا ليحاربه.

موقف المعتمد بن عباد

كان المعتمد بن عباد يحكم أشبيلية، وكان يدفع الجزية لألفونسو السادس ملك قشتالة، وعندما جائه ذات يوم وزير ألفونسو لأخذ الجزية، أساء الأدب مع المعتمد، وطلب بكل وقاحة، أن يسمح لزوجة ألفونسو الحامل أن تضع مولودها في أكبر مساجد المسلمين، لأنه تم التنبؤ لها أنها إذا ولدت هناك سيدين المسلمين بالولاء لولدها فغضب المعتمد وقتل الوزير، وعندما علم ألفونسو السادس بقتل وزيره، غضب وسار إلى أشبيلية وحاصرها بجيشه، وبعث إلى المعتمد بن عباد يخبره أنه سيمكث هنا ولا يوجد ما يضايقه سوى الذباب، ويأمره أن يبعث له بمروحة ليروح بها الذباب، فلما وصلت هذة الرسالة إلى المعتمد قلبها وكتب على ظهرها : والله لئن لم ترجع لأروحن لك بمروحة من المرابطين هدد المعتمد بالأستعانة بدولة المرابطين، فخاف ألفونسو وجمع جيشه وأنصرف.

إجتماع ملوك الطوائف

فكر ملوك الطوائف في الكارثة التي توشك أن تعصف بهم وهي سقوط دولة الأندلس فقاموا بعقد اجتماع يضم كافة أمراء الأندلس وعلماء الأندلس، وأشار العلماء في ذلك الاجتماع بالجهاد، وطبعا عارض الأمراء ذلك الرأي بشدة بحجة عدم قدرتهم على الوقوف وحدهم في مواجهة القشتاليين، فأقترح العلماء مرة أخرى الأستعانة بالمرابطين، فتخوف الأمراء من ذلك الأمر لأن المرابطين دولة قوية ولو هزمت النصارى لأخذت دولة الأندلس وضمتها إلى دولة المرابطين، فتجادلوا كثيرا حتى قام المعتمد على الله بن عباد وقال خطبة كان آخرها مقولته الشهيرة : والله لا يسمع عني أبدا أنني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم علي اللعنة في منابر الإسلام مثلما قامت على غيري، تالله إنني لأوثر أن أرعى الجمال لسلطان مراكش على أن أغدو تابعا لملك النصارى وأن أؤدي له الجزية، والله لئن أرعى الأبل في المغرب خير لي من أن أرعى الخنازير في أوروبا .

فلما انتهى من خطبته تشجع كلا من المتوكل على الله بن الأفطس وعبد الله بن بلقين، ووافقا على الطلب من المرابطين العون لمحاربة قشتالة، وقام هؤلاء الأمراء الثلاثة بإرسال وفد مهيب من الوزراء والعلماء إلى دولة المرابطين في المغرب.

الاستنجاد بيوسف بن تاشفين

عندما وصل الوفد إلى يوسف بن تاشفين فرح بهذه الفرصة للجهاد في سبيل الله وجهز سبعة آلاف رجل وجهز السفن وعبر مضيق جبل طارق في الخميس منتصف ربيع الأول 479 هـ/ 30 يونيو 1086، ولكن في وسط المضيق ترتفع الأمواج ويهيج البحر وتكاد السفن أن تغرق فيقف ذليلا خاشعا يدعو ربه والناس تدعوا معه يقول: اللهم إن كنت تعلم في عبورنا هذا البحر خيرا لنا وللمسلمين فسهل علينا عبوره وإن كنت تعلم غير ذلك فصعبه علينا حتي لا نعبره فتسكن الريح ويعبر الجيش، يدخل يوسف

بن تاشفين أرض الأندلس، ويستقبله الناس أستقبال الفاتحين ويدخل إلى قرطبة ويدخل إلى أشبيلية، ثم يعبر إلى اتجاه الشمال في اتجاه مملكة قشتالة، حتى وصل إلى الزلاقة في شمال الأندلس، وعندما وصل هناك كان قد أنضم إليه من أهل الأندلس حتى وصل جيشه إلى حوالي ثلاثين ألف رجل، وهناك وقعت معركة الزلاقة.

يعلق يوسف أشباخ في كتابه تاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين على موقعة الزلاقة بقوله: إن يوسف بن تاشفين لو أراد استغلال انتصاره في موقعة الزلاقة، لربما كانت أوروبا الآن تدين بالإسلام ، ولدرس القرآن في جامعات موسكو، وبرلين، ولندن، وباريس.

والحقيقة أن المؤرخين جميعا يقفون حيارى أمام هذا الحدث التاريخي الهائل الذي وقع في سهل الزلاقة، ولم يتطور إلى أن تتقدم الجيوش الإسلامية لاسترداد طليطلة من أيدي النصارى، خاصة وأن الملك الأسباني كان قد فقد زهرة جيشه في هذه المعركة، ولا يختلف أحد في الرأي بأن الطريق كان مفتوحا تماما وممهدا لكي يقوم المرابطون والأندلسيون بهذه الخطوة.

ملوك الطوائف بعد الزلاقة

بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى أرض المغرب، حدثت صراعات بين أمراء المؤمنين الموجودين في بلاد الأندلس على غنائم معركة الزلاقة، وعلى البلاد المحررة، فضج العلماء، وذهبوا إلى يوسف بن تاشفين يطلبون منه الدخول مرة أخرى إلى الأندلس لتخليص الشعب من هؤلاء الأمراء، فتورع يوسف بن تاشفين من محاربة المسلمين، فأتته الفتاوي من كل بلاد المسلمين، حتي جاءته من الشام من أبي حامد الغزالي صاحب الإحياء، وكان معاصرا وجاءته الفتاوي من أبي بكر الطرطوشي العالم المصري الكبير ،وجاءته الفتاوي من كل علماء المالكية في شمال أفريقية، جاءته الفتاوي إنه عليه أن يدخل إلى البلاد، ويضمها إلى دولة المرابطين حتي ينجد المسلمين مما هم فيه، ففعل ودخل في سنة 483 بعد موقعة الزلاقة التي تمت في سنة 479 بأربع سنوات، وهناك حاربه أمراء المؤمنين، وممن حاربه المعتمد بن عباد، استطاع يوسف بن تاشفين أن يضم كل بلاد الأندلس،

وأيضا يحرر سرقسطة، وضمها إلى بلاد المسلمين وأصبح يوسف بن تاشفين أميرا على دولة تصل من شمال الأندلس بالقرب من فرنسا إلى وسط أفريقيا وبهذا انتهى عصر ملوك الطوائف الذي أمتد من سنة 422 هـ إلى سنة 479 هـ.

الباب الخامس

السقوط وعوامله

عوامل سقوط الأندلس

إن قصة سقوط الأندلس قصة مؤلمة جدا؛ تؤلمنا أحداثها، وتؤلمنا أرواح الأعداد الهائلة من الشهداء الذين سقطوا على أرضها، وتؤلمنا النساء اللواتي انتهكت أعراضهن، والخونة الذين خانوا أمتهم من بني جلدتنا، ويؤلمنا أننا فقدنا بفقدها تاريخا عريقا ومجدا تليدا، ونحن نعلم أن هذا المجد وذاك التاريخ قد انتهى وضاع، وصارت الأندلس الفردوس المفقود إلا أنه لا بد من قراءة هذا التاريخ والمجد وكيف ضاع، وكيف سلب منا، وكيف سقطت حضارة الأندلس بعد بناء دام قرونا عديدة وبقراءتنا لتاريخ الأندلس، سنصل إلى نتيجة مهمة ونافعة للأمة في حاضرها ومستقبلها؛ نتيجة كيف تقام الأمجاد وكيف تسقط، وكيف تبنى الحضارات وكيف تهدم. إن تاريخ الأندلس بصفحاته الطويلة تظهر فيه سنن الله في النصر والهزيمة والقيام والسقوط جلية واضحة وفيه من الدروس والعبر الكثير الكثير ويمكن إجمال أهم سنن سقوط الأندلس فيما يلي:

1- حب الدنيا وكراهية الموت:

حقق طارق بن زياد وجنوده نصرا مؤزرا في وادي برباط، حيث انتصر المسلمون وهم 12 ألفا على 100 ألف من أعدائهم الفرنجة ثم أخذ طارق بن زياد جيشه بعد انتهاء المعركة مباشرة واتجه شمالا؛ لفتح بقية بلاد الأندلس، ففتحها بإذن الله وعونه ونصره لما كان معتزا بدين الله لا باليهود والنصارى، وكان همه نصرة الإسلام لا العصبية وشهوة السلطة وحب الدنيا، وكان جيشه وجنوده صفا واحدا لا متفرقين شذر مذر.

لكن هذا النصر الذي حققه طارق وبعده يوسف بن تاشفين وغيرهما لم يحافظ عليه الذين ملكت شهوة الحكم عليهم كيانهم، وصارت أغلى أمانيهم، ولو قدموا شعوبهم وأرضهم فداء لها وكان الاستغراق في الترف والتبذير والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها ومغرياتها، والخنوع والدعة والميوعة، والفسق والفجور وحب الدنيا وشهوة السلطة؛ أول العوامل التي أدت إلى تلك النهاية المؤلمة للأندلس بلاد العلم والفقه والحضارة ، ولآخر معاقلها غرناطة، وقد ارتبطت فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والانحطاط الكبير في الأهداف.

لقد أصاب أمتنا في الأندلس من العقاب الإلهي ما جعلها فردوسا مفقودا، ولم تنتبه لتحذير نبيها صلى الله عليه وسلم لها من العقاب الذي سيصيبها عندما تتنكب عن سنن الله، وتحيد عن منهاجها المستقيم، بحبها الدنيا مناط البلاء وكراهيتها الموت؛ فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائلٌ ومن قلةٍ نحن يومئذٍ قال بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائلٌ يا رسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت وهذا مثالٌ لا أبلغ منه في تصوير تفكك الأمة، وانفراط عقدها، وخفة وزنها، وهوان قيمتها، وانسياحها في مجاري التبعية الفكرية والسياسية، وتكالب أعدائها عليها من جراء ما كسبت أيديها.

لهذا جمع الله لنا في سياق آية من سورة آل عمران أربعة أمراض وأدواء مترابطة بعضها يغذي بعض؛ مما يكون سببا للهزيمة والوبال، قال الله تعالى: {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضلٍ على المؤمنين}.

هذه الأمراض كما هي مذكورة في الآية هي:

أولا: الفشل (فشل الأمير أبو عبد الملك الصغير ثم فشل بفشله جنده ومن معه).

ثانيا: التنازع في الأمر (تنازع ملوك الطوائف على السلطة والإمارة فقسموا الأندلس قطعا).

ثالثا: العصيان(عصيان أوامر الله تعالى ورسوله الذي أمر بالوحدة والاعتصام بحبله والجهاد لحماية ثغور الأمة، والشورى).

رابعا: حب الدنيا؛ أصل البلاء ومناطه، وسبب كل خطيئة (لقد كان هم أمراء الأندلس الحفاظ على كراسيهم وسلطتهم ولو قدموا أعناق شعبهم وأراضيهم ثمنا لذلك).

فلما توافرت هذه الأمراض في الأندلس، كانت الهزيمة والسقوط، وفقدنا خير البلاد المسلمة في العالم.

2- الذنوب والمعاصي:عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا معشر المهاجرين! خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء،ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم ولقد نقض أمراء الأندلس عهد الله وعهد رسوله وخانوا أمتهم وتفرقوا وتشتتوا وتمزقوا وتنازعوا على السلطة والحكم، وتقاعسوا عن الدفاع عن حمى الإسلام وأهله، ولازموا الذنوب والمعاصي والمهلكات؛ فحق عليهم القول رغم كثرة عددهم؛ إذ جيش المسلمين لا ينصر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه ينصر بالتقوى.

3- توحد الأعداء وتمزق المسلمين صفا وقلوبا: إن الخلاف والتنازع لا يعطي ثمارا ولا يحقق نصرا ولا يرهب عدوا، فهو مرض خطير عاقبته سيئة ونتائجه وخيمة، ولهذا حذرنا الله تعالى من هذا الجرثوم الخبيث، وقدم الأمر بطاعة الله ورسوله على النهي عنه، مما يجعلنا نلمح أن العاصم من هذا المرض الخطير هو الطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ولله در القائل:

كونوا جميعا يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا أفرادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا وإذا افترقن تكسرت آحادا

لكن أمراء الأندلس لما أفلت حبل الفطرة من يدهم، وارتخت أيديهم عن عروة القرآن؛ تمزقوا شيعا، وتقطعوا زبرا، وتعمق الخلاف بينهم، وعاشت الأندلس بعد نهاية الدولة العامرية في تمزق وتشتت، وتحولت إلى ممالك وإمارات وصلت إلى 22 إمارة، كل واحدة مستقلة عن الأخرى،

وأصبحت فيما يسمى ملوك الطوائف، واتسع شرخ الخلاف والفرقة بينهم، بل استعان بعضهم بالأعداء في الصراع مع إخوانه، وقدم تنازلات من حصون ومدن لعدوه شريطة التغلب على إخوانه، فباع أرضه وخان أمته ووطنه؛ فأضاعوا بلادهم، وأهلكوا أمتهم، وكانوا السبب فيما حل بها من الفتك والقتل والاستعباد والطرد والقتل بأبشع الوسائل الهمجية والوحشية.

4- التقاعس والتقاعد عن الجهاد في سبيل الله لحماية الثغور وحماية الناس:إن الناظر إلى تاريخ الأندلس قبيل سقوطها ليتساءل: أين أولئك الذين نذروا أنفسهم لله وللدفاع عن حمى دين الله ونصرة المستضعفين؟ أين المجاهد الرباني والقائد الحكيم يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين طارق بن زياد وغيرهم؟.

وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى أمراء غرناطة، ومن كان على شاكلتهم حين ذلوا وأهينوا لما تركوا الجهاد في سبيل الله والدفاع عن ثغور الأمة.

لهذا أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم مغزى سنة الله في الجهاد وكنهها وأنها ماضية لا تتخلف، فحذر أمته من التخلف عنها وتنكبها: عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

ألم تحصد هذه السنة الإلهية ملوك الطوائف في الأندلس؟ لما تنكبوها وحادوا عن منهاجها ذلوا وخسئوا وسحب من تحتهم البساط وطردوا من قصورهم أذلة صاغرين.

5- الاعتزاز بغير الله وموالاة اليهود والنصارى:

يقول الله تعالى في الاعتزاز بغيره:{واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا} وهذه سنة إلهية ثابتة: من اعتز بغير الله خذله وجعل عاقبة أمره خسرا ولما اعتز ملوك الأندلس وأصحاب القوة والجاه فيها باليهود والنصارى، تخلف عنهم التوفيق، وأصبحوا في أمر مريج، حتى أسقطوا بموالاتهم لأعداء الله حضارة ثمانية قرون إنه خذلانٌ من الله استحق عقابه شرذمة أرادت العزة في غير الإسلام، فأذلها الله.

6- **إسناد الأمر إلى غير أهله:** كان إسناد الأمر إلى غير أهله أحد عوامل سقوط الأندلس، وكان ذلك واضحا جدا، خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضا ولاية جميع أبناء الأحمر حتى آخر ملك منهم، وأبو عبد الملك الصغير.

أسند الأمر إلى الدعة والفسق والفجور والفساد وحب السلطة وموالاة الأعداء على حساب إخوانهم من المسلمين؛ فكانت النتيجة واضحة جدا خسرنا الأندلس بكل ما فيها.

7- **الجهل بالدين والتربية على غير مبادئه:**

إن الفقه في الدين والتربية الإيمانية يقيان صاحبهما من المهالك والمخاسر والفتن ولقد كان للتفقه في الدين والتربية الإيمانية في الأربطة والمجالس؛ قيمة عظمى زمن عبد الله بن ياسين، حيث ربى أعظم أمير ومجاهد رباني يوسف بن تاشفين فخاض معارك خالدة في الأندلس وأعاد للمسلمين عزتهم ومكانتهم وكرامتهم، كما كان للعلم قيمة كبرى زمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر

لكن للأسف انتشر الجهل بالدين بين الناس في نهاية عهد المرابطين، والموحدين، وسادت بين الناس معتقدات غريبة وآراء عجيبة تدل على الجهل المطبق بالدين وأحكامه ومبادئه وتعاليمه وخير مثل على هذا الجهل ما كان من غزو محمد بن الأحمر الأول لأشبيلية، وقد تبعه الناس في ذلك ظنا منهم أنهم على صواب، وأنهم أصحاب رسالة وفضيلة، وأي جهل بالدين أكثر من هذا؟!

8- الاغترار بالكثرة الغثائية:

قال جل وعلا: {لقد نصركم الله في مواطن كثيرةٍ ويوم حنينٍ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين} إن الإعجاب بالكثرة هزيمة روحية سبقت الهزيمة في ميدان المعركة وهكذا فإن الاتكال على الأسباب الظاهرة مرض دواؤه التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه، مع إعطاء الأسباب حقها، بإعداد ما استطعنا من قوة وإنما الأسباب الظاهرة من وضع الله تعالى، فادعاء تخطيها رفضا للعبودية المضروبة علينا وعلى كل البشر على سواء في هذا الميدان فمن جد وجد.

9- تغيير النعم:

قال تعالى:{ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميعٌ عليمٌ}فلما توحد المسلمون وحكامهم في الأندلس في معاركهم وفي بناء مجتمعهم والتزموا بما أمرهم الله به، وجاهدوا في سبيل الله نصرة لدين الله ونصرة للمسلمين وديارهم؛ صدقهم الله وعده ونصرهم في معارك شتى، واستمرت حضارتهم لقرون متوالية.

ولما خالفوا أمر الله واستكانوا للدعة والمرح والاسترسال في الشهوات وحياة اللهو والعبث، والخلاعة والمجون، وغيروا نعم الله عليهم وتفرقوا شذر مذر؛ حلت بهم الهزيمة والسقوط المريع لذلك؛ لما تغيرت أحوال الناس في الأندلس وأمرائها تغير حال الأندلس وسقطت من أيديهم،لذلك يرى المؤرخون: أن الأندلسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم ناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر،

فذهبت أخلاقهم، كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي؛ من أبرز المميزات أيام الاضمحلال التي استناموا فيها للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات وإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد لقد دخل المسلمون الأندلس وأعلوا راية الإسلام فيها لما كان نشيد المجاهد القائد البطل طارق بن زياد في العبور الله أكبر، وبقوا فيها زمنا حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما أهديت له جارية جميلة نظر إليها وقال: إن هذه لمن القلب والعين بمكان، وإن أنا لهوت عنها بمهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن لهوت بها عما أطلبه ظلمت مهمتي، فلا حاجة لي بها الآن.

وعندما قدم إليه الخمر ليشرب قال:إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه وضاعت حضارة الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيدهم:

دوزن العود وهات القدحا   راقت الخمرة والورد صحا

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ، خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة، فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي: لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ضعفت همم المسلمين، وتنافسوا الدنيا ومغرياتها؛ فسلبت ديارهم، وانتهكت أعراضهم وانظروا إلى حال الدنيا وتلاعبها بأصحابها لما تنافسها الأمراء والملوك من أجل إسعاد جواريهم وزوجاتهم ما فعلت الدنيا بالمعتمد بن عباد لما اشتهت إحدى زوجاته أن تمشي في الطين وتحمل القرب، فأمر ابن عباد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران، وتحمل قربا من طيب المسك وتخوض فيها؛ تحقيقا لشهواتها!.

لكن دوام الحال من المحال، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ فانقلبت الموازين وفق سنة الله الخالدة،فسيق ابن عباد أسيرا إلى أغمات وحبس هناك وزال عنه نعيم الدنيا وعن أهله، وتحولت بناته من سيدات إلى غزالات(الغزالة من تقوم بغزل الخيط والجمع غزالات) للناس ليضمن قوت يومهن.

10- تداول الأيام بين الناس:

لقد جعل الله تعالى مداولة الأيام بين الناس من سننه في المجتمعات، فقال تعالى: {وتلك الأيام نداولها} ، ليميز سبحانه صادق الإيمان من المدعي، وينكشف النفاق المدسوس المتقاعد لذلك؛ فإن هذه المداولة أو التداول يقع ضمن سنن الله في عباده؛ فمن شمر عن ساعد الجد وأخذ بأسباب النصر ومقوماته دالت له الأيام، ومن نكص عنها كما نكص أهل الأندلس دالت عليه الأيام، وربنا تبارك وتعالى لا يظلم أحدا.

11- الفشل والهزيمة النفسية:

الفشل والهزيمة المعنوية مرض خطير، وعرض من أعراض الفرقة والخلاف وحب الدنيا، وطريق للهزيمة المادية والعسكرية لذلك؛ لما أعلن الملك الصغير أمام جنده وحاشيته ووزرائه أنه يفكر في الاستسلام، زادهم فشلا على فشل وهزيمة على هزيمة، ووافقوه على الاستسلام إلا وزيره موسى أبى الاستسلام للعدو الفرنجي وتقديم مفاتيح آخر قلعة من قلاع الأندلس على طبق من ذهب للعدو الغاصب.

12- الغفلة عن الله:

يقول الله تعالى يحذرنا من مغبة الغفلة عنه: {ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون} ولا أدل من غفلة أهل الأندلس عن الله والدار الآخرة من انشغالهم بعمارة القصور والتفنن في زخرفتها وبنائها والتنافس فيها، وأشعار الغزل والرقص والترف والتبذير والمجون نسوا الله فأنساهم وتركهم لما انشغلت به أنفسهم عنه حتى كان تدميرهم تدبيرهم.

13- حب الرئاسة:

إنه ليس هناك ضرر على قلب المرء ودينه من حبه الرئاسة والجاه، ولنا في تاريخ الأندلس دليل على ما ينتج عن هذا المرض من نتائج وخيمة وعواقب سيئة. لما دبت روح حب الرئاسة في قلوب أمراء المسلمين بالأندلس وتركوا أمر دينهم وراء ظهورهم؛ انقسموا إلى طوائف وتفرقوا في بلاد الأندلس، ففتك بهم عدوهم بما تشق له المرائر، وتتفتت الأكباد، وتقشعر من هوله الجلود والأبدان.

هذا ومن المعلوم أن خطورة هذا المرض قد تصل إلى سفك الدماء، وانتهاك الحرمات، واتهام الأبرياء، وهذا ما وقع في تاريخ المسلمين عامة وفي تاريخ الأندلس خاصة، فكم من أخ قتل أخاه أو أباه أو عمه أو خاله؟ وكم من أخ تحالف مع عدوه ضد أخيه أو أحد أقاربه؟ من أجل حطام الدنيا الفانية، وحرصا على مغرياتها الزائلة، وصفحات كتب التاريخ مليئة بذلك وشاهدة على خطورة هذا الداء العضال.

14- الظلم:

الظلم ليس سببا من أسباب الهزيمة والسقوط فحسب، بل هو سبب من أسباب هلاك الأمم وسقوط الدول وانهيار الحضارات وتغير الأحوال فملوك الطوائف اجتمعت فيهم كل أنواع الظلم؛ ظلموا أنفسهم لما غرقوا في حب الدنيا وملذاتها وشهواتها، وظلموا ما بينهم وبين ربهم لما تقاعسوا وتقاعدوا عما افترضه عليهم من فرائض وأوجبه من واجبات وحرمه من محرمات وفواحش وبخل وتبذير، وظلموا رعيتهم في الأرزاق وفي الحماية والدفاع عنها، وخانوا أرضهم لما قدموها سهلة لعدوهم، وظلموا الأجيال قبلهم لما أضاعوا ما شيدوه وبنوه على مدار 800 عام، وظلموا الأجيال بعدهم لما لم يحافظوا على الأمانة ولم يؤدوها إلى أهلها.

15- التخاذل والنفاق والخيانة:

إن وجود المتخاذلين والمنافقين والخائنين في صف المجاهدين لا مناص منه، وكتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم مليئان بالتحذير من هذه العناصر المريضة، وواجب الأمة أن تأخذ حذرها منهم وإذا ظهر منهم ما يسوؤها وجب أن تطهر صفوفنا منهم حتى لا يكونوا منفذا للهزيمة والوبال وفي فترات ضعف الأندلس إلى سقوطها كان من أسباب ذلك كثرة الخيانات والتخاذل فهذا الإمام أبو الوليد الباجي يدعو ملوك الطوائف إلى الوحدة لمواجهة الخطر النصراني الذي يهدد وجود المسلمين في الأندلس، لكنهم رغم ترحيبهم به وبدعوته تخاذلوا عن الدفاع عن حمى المسلمين؛ لأن حب الدنيا الذي تربع على عرش قلوبهم أصمهم وأعمى أبصارهم، وزادت النزاعات بينهم حتى وصلت إلى القتال، مما دفع بأعدائهم للتجرؤ عليهم واستباحة أراضيهم وأعراضهم، فهاجم فردلند مدينة بازو فقتل أهلها وانتهك أعراضها وأخذ الباقي أسرى سنة 449هـ بل وصلت الخيانة ببعضهم إلى أن رأى إخوانه والعدو يحاصرهم لايحرك ساكنا ويرفض نصرتهم ومساعدتهم، كما وقع لما راسل المظفر بالله أخاه المؤيد بالله،بل أرسل إلى كل دويلات الأندلس يطلب المدد وفك الحصار عن المسلمين،

لكن للأسف لم يجبه أحد، بل دل أحد الخائنين العدو الفرنسي على مصدر الماء الذي يروي عطش المسلمين فقطعوه عنهم فاشتد العطش بهم، فاقتحم الفرنسيون الكاثوليك والنورمان النصارى مدينة بربشتر فاستباحوها وقتلوا بين 40 ألفا و100 ألف من أهلها، وهتكوا الأعراض أمام محارمها وأهلها، وأصبح كل أهل المدينة عبيدا للمحتل بعدها.

ثم جاء دور ما تبقى من حصون الأندلس؛ جاء دور غرناطة، وجمع فرديناند جموعه للتوجه نحو غرناطة، فظهرت خيانة جديدة من أبي عبد الله محمد الثالث عشر المعروف بالزغل لابن أخيه الملك أبي عبد الله الصغير طمعا في الملك، فكان سببا في إضعاف المملكة وجعلها فريسة لمملكتي قشتالة وأرجون لكن جرت الرياح بما لم تشتهه السفن، فأهل غرناطة له كارهون وباسم ابن أخيه يهتفون، فما كان منه إلا أن أخذ أمواله وحشمه وخدمه متوجها إلى المغرب ليعيش عيشة هنية بما أخذه معه من مال وجوار وخدم، لكن حاكم فاس سرعان ما ألقى القبض عليه وجرده من كل ما يملك، فسملت عيناه وألقي به في السجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك، فعاش متسولا منبوذا حتى مات واشتد الحصار على غرناطة

واستسلم الملك الصغير ومن معه من قادة الجيش وعلماء السوء إلا وزيره موسى الشهم فكان استشهاد موسى بن أبي غسان وتسليم الملك الصغير غرناطة للملكين فرناندو الخامس وإيزابيلا إيذانا بانتهاء عصر حكم المسلمين في غرناطة، وبسقوطها ينتهي حكم المسلمين بالأندلس.

أعطى أبو عبد الله محمد الثاني عشر الموافقة بالتسليم، ولم ينس أن يرسل إليهما بعضا من الهدايا الخاصة، وبعد التسليم بأيام يدخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى، ويعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس.

خرج آخر ملوك المسلمين أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير من القصر الملكي في نكسة كبيرة وفي ذل وصغار، يسير بعيدا في اتجاه بلدة أندرش، حتى وصل إلى ربوة عالية تطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه،

وإلى ذاك المجد الذي ولى، وبحزن وأسى قد تبدى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له أمه عائشة الحرة: أجل؛ فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال.

وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل الذي وقف عليه الصغير في أسبانيا، وما زال الناس يذهبون إليه يتأملون موضع هذا الملك الذي أضاع ملكا أسسه الأجداد، ويعرف هذا التل بـــزفرة العربي الأخيرة، وهو بكاء أبي عبد الله محمد الصغير حين ترك ملكه فكان سقوط الأندلس في الثاني من شهر ربيع الأول سنة 897هـ = 2 من يناير سنة 1492م وقد مر على سقوطها 538 سنة.

السقوط

يعتبر سقوط الأندلس من أكثر اللحظات مرارة في تاريخ العرب والمسلمين، ولم يأت سقوطها من فراغ، فبعد أن مرت هذه الدولة بمرحلة القوة والعظمة والتألق والازدهار والعطاء والانتاج، بدأت تضعف تدريجيا، فبعد ضعف الدولة الأموية في الأندلس، وبداية حقبة ملوك الطوائف أخذت الحياة في الأندلس منحى آخر، حيث بدأت الخلافات تدريجيا شيئا فشيئا تزداد في هذه المنطقة، حيث أصبح هناك عدة دول وقسمت دولة الأندلس إلى أكثر من عشرين دويلة صغيرة.

وازدادت الأطماع في الأندلس خصوصا من قبل الأوروبيين الذين ينتظرون اللحظة السانحة حتى ينقضوا على هذه الدويلات ويأكلوا منها شيئا فشيئا، إلى أن ظهرت دولة المرابطين حيث بزغ نجم علم من الأعلام في تاريخ المسملين، وهو الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين الذي استطاع أن يضع حدا للأطماع الأوروبية في هذه الدولة ويضمها إلى دولة المرابطين لتصبح جزءا منها،فخاض عدة معارك معهم من أشهرها معركة الزلاقة

وبعد فترة من الزمن استطاعت دولة الموحدين الانقلاب على دولة المرابطين وإنهائها، وبهذا انتقل حكم الأندلس من دولة المرابطين إلى دولة الموحدين، الذين استطاعوا أيضا الدفاع عن الأندلس فترة من الزمن إلى أن سقطت دولة الموحدين في معركة العقاب الشهيرة.

بعد هذا تأسست دولة بني الأحمر في غرناطة، حيث كانت هذه المرحلة الأخيرة قبل السقوط النهائي للدولة الإسلامية في الأندلس، التي تعاقب على حكمها عدة ملوك من بني الأحمر، إلى أن سقطت نهائيا على يد فرناندو الثاني عام **1492** ميلادية سقوط الأندلس هو قصة تصلح لأن تكون عبرة ومثالا حيا لما يسببه التنازع والفرقة بين الإخوة.

بداية السقوط

ألفونسو الثالث ملك أستورياس وزوجته خيمينا أمر بإنشاء ثلاث سجلات تثبت نظرية أن مملكة أستورياس هي الوريث الشرعي لمملكة القوط الغربيين التي كانت تحكم أيبيريا قبل الفتح الإسلامي.

ويرى المؤرخون الأسبان والمسلمون أنه في 718 بدأت حركة الإسترداد المسيحية في معركة كوفادونجا أو مغارة دونجا وفيها انهزم ابن علقمة اللخمي شر هزيمة من قوات بلايه، وانتهت بتأسيس أولى إمارات الفرنجة في شمال أيبيريا.

معركة بلاط الشهداء

جمع عبد الرحمن الغافقي جيشه وخرج فى احتفال مهيب ليعبر جبال البرانس واتجه شرقا ليضلل المسيحيين عن وجهته الحقيقية، فأخضع مدينة أرل التي خرجت عن طاعة المسلمين، ثم اتجه إلى دوقية، فانتصر على الدوق انتصارا حاسما، ومضى الغافقي في طريقه متتبعا مجرى نهر الجارون فاحتل بردال واندفع شمالا ووصل إلى مدينة بواتييه في بداية غزو جنوب فرنسا دققت بها أودو العظيم في معركة تولوز في 721 تراجعت وتجميعهم، تلقى التعزيزات. ولم يجد الدوق أودو بدا من الاستنجاد بالدولة الميروفنجية،

وكانت أمورها في يد شارل مارتل، بعد الغزو كان شارل مارتل هزم في معركة جولات في 732 تدعى معركة بلاط الشهداء وقعت 10 أكتوبر عام 732 م بين قوات المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي وقوات الإفرنج بقيادة قارلة أو تشارلز/ كارل مارتل هزم المسلمون في هذه المعركة وقتل قائدهم وأوقفت هذه الهزيمة الزحف الإسلامي تجاه قلب أوروبا وحفظت المسيحية كديانة سائدة فيها.

الاستيلاء على طليطلة

بعد أن ظلت الدولة الإسلامية في الأندلس بضعا من الزمن متماسكة موحدة، بدأت تقام ممالك فرنجية في شمال إسبانيا المحررة مثل ممالك قشتالة واراجون ومملكة ليون والباسك قامت دولة بني ذي النون في توليدو طليطلة وبدأ صراع مع ملك سرقسطة ابن هود ولجأ الطرفان يطلبان مساعدة ملوك أسبانيا المسيحيين وكان هؤلاء يساعدون المسلمين على بعض، مقابل الحصول على مال أو قلاع أو أراضٍ أو مدن واستمر النزاع بين طليطلة وسرقسطة من 1043 إلى 1046م وبعد فترة صراعات داخل البيت القشتالي انتهى بوحدة مملكتي قشتالة وليون تحت صولجان الملك الفونسو السادس وبعد أن استتب له الأمر، فرض حصار على توليدو في 1084م

ولم يقم أحد بمساعدة إخوانهم المسلمين إلا المتوكل ابن الأفطس الذي أرسل جيشا كبيرا لنجدة توليدو، لكنه تعرض لهزيمة ساحقة ماحقة من الجيش المسيحي واستمر الحصار 9 شهور، إلى أن استبد الجوع بالناس ولم تفلح محاولات المسلمين في الوصول لتسوية لم يرض الفونسو سوى بتسلم المدينة كاملة، وفعلا تم ذلك في 25 مايو 1085م، وتوجه إلى المسجد الكبير الذي حوله إلى كاتدرائية وصلى فيه قداس الشكر وصارت العاصمة لمملكة قشتالة الفرنجية وتم الاستيلاء عليها وتم منح المسلمين الحرية كاملة لمغادرة المدينة أو البقاء فيها وحرية التصرف في أملاكهم.

نهاية الممالك الإسلامية في الأندلس

قام المسيحيون بشن حروب لإعادة أيبيريا لهم في قرطبة 1236 و اشبيلية 1248 نهاية بسقوط دولة بني الأحمر في غرناطة سنة 1492 اتحدت مملكة ليون وقشتالة مع مملكة أراجون واستطاع الملك فيرنانديو والملكة إيزابيلا، استرجاع المدن الأيبيرية الواحدة تلو الأخرى إلى أن سقطت في أيديهم غرناطة آخر قواعد المسلمين سنة 1492.

سقوط الاندلس الفعلي:

ابتداء من عام 895هـــ شن الأسبان حربا متواصله لا هواده فيها انتهت بسقوط غرناطة وتوقيع وثيقه الاستسلام والسقوط عام 897 هـــ 1492 م لتبدأ بعد ذلك فصول مأساة هي الافظع والأبشع في تاريخ أوروبا حيث قتل عدة ملايين من المسلمين تحت وطأه التعذيب في محاكم التفتيش وأجبر الباقون على التنصر وطويت صفحه دوله من أعرق دول الاسلام في التاريخ الاسلامي كله.

استغل الصليبيون مقتل ابن هود وأخذوا في الاستيلاء على بلاد الأندلس واحدة تلو الأخرى وساعدهم على ذلك اشتعال نار الفتنة بين أهل الأندلس الذين لم يتخلصوا منها على مر السنين؛ فالعصبية القبلية كانت السبب المباشر لبلية تلك البلاد، وفي تلك الآونة العصيبة التي أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة مثل قرطبة وبلنسية ومرسية تسقط تباعا في يد الصليبيين، في حين كان يؤثر الزعماء المسلمون الأصاغر مصانعة ملك قشتالة الصليبي والانضواء تحت لوائه.

كانت هزيمة الموحدين سنة 609هـ بالأندلس في معركة العقاب، إيذانا بانهيار هذه الدولة القوية، الذي جاء مروعا وسريعا، واتسعت عليها الخروق في المغرب والأندلس بالثورات الداخلية المتكررة، وتطلع المسلمون في الأندلس لزعامة جديدة تلملم شعث دولة الإسلام في الأندلس، في ظل تخاذل حكام الموحدين، وفي هذه الفترة برز نجم قائد جديد وهو ابن هود الذي أعلن أنه سيقوم بتحرير الأندلس من نير الموحدين وعدوان الصليبيين.

سقوط لشبونه

كان قيام مملكة البرتغال الناشئة، واشتداد ساعدها في عهد ملكها ألفونسو هنريكيز، يمثل الخطر الجديد على قواعد الأندلس الغربية المتاخمة لهذه المملكة الجديدة، وكان ألفونسو هنريكيز حينما اضطربت شئون الأندلس، وعمت الفتنة قواعد الغرب، قد انتهز هذه الفرصة للإغارة على القواعد الإسلامية المجاورة، وكان يتوق بالأخص إلى الاستيلاء على لشبونة لموقعها الفذ عند مصب نهر التاجه، ولحصانتها.

سقوط طليطلة

قد تعرضت مدينة طليطلة لهجمات كثيرة من النصارى في عهد فرناندو الأول وابنه ألفونسو السادس، إضافة إلى غارات ملوك الطوائف المجاورة لها إثر النزاعات المتبادلة بينهم، وكان النصارى على علم بأن طليطلة واسطة العقد في بلاد الأندلس، فلو سقطت فمن المؤكد أن تسقط قرطبة وبطليوس وغرناطة وأشبيلية وهكذا تباعا.

سقوط بلنسيه

بدأ حصار بلنسية في الخامس من شهر رمضان سنة 635 هـ أبريل سنة 1238 م وشدد النصارى في التضييق على المدينة المحاصرة، وبدأوا يضربونها بالآلات المخربة وكانت بلنسية، مذ هزمت قواتها، وسقط أبناؤها في موقعة أنيشة، قبل ذلك بأشهر قلائل، قد ساءت أحوالها، وانهارت قوي شعبها المعنوية وأخذت تتوقع سوء المصير.

سقوط غرناطه آخر معاقل المسلمين بالاندلس

لم يبق من دولة الإسلام هناك سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عرفت بمملكة غرناطة، شاءت الأقدار لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة زاهية وحياة ثقافية رائعة، حتى انقض عليها الملكان المسيحيان: فرديناند الخامس وإيزابيلا، وحاصرا بقواتهما غرناطة في 12 من جمادى الآخرة 896هـ= 30 أبريل 1491 حصارا شديدا

سقوط سرقسطة الأندلسية في ٣ رمضان٥١٢هـ

انقسمت الأندلس بعد سقوط الخلافة الاسلامية فيها إلى 22 دويلة، وكان على كل دويلة حاكم يتملكها له ولذويه وأبنائه، وانتسبت تسمياتها في معظمها إلى حكامها، فيقال مملكة بنو عباد، ومملكة بنو زيري، وبنو جهور، وبنو الأفطس، وبنو ذا النون، وبنو عامر، وبنو هود وغيرها، وأصبح المسافر يسافر مسافة يوم يقابل فيها 3 مملكات، كل مملكة عليها ملك، وكل واحد منهم تسمى باسم أمير المؤمنين، ولكل دويلة جيش وأعلام وسياج يحيط بها، ولقبوا تاريخيا بملوك الطوائف.

ووضع بعضهم لنفسه لقبا مميزا، مثل المتوكل على الله، والناصر لدين الله، والمعتضد، والمعتمد وغير ذلك، الا أن بعضهم كان أبعد ما يكون عن ذلك الوصف، وكانت لكل ملك مجموعة من العلماء الموالين له يوهمون الناس أن هذا الملك خير للاسلام والمسلمين، وأنه ناصر لدين الله.

ولحماية ملكهم كانوا يدفعون الجزية لألفونسو ملك النصارى، فمنهم من كان يدفع الجزية نقدا، ومنهم من كان يدفعها بشراء البضائع بأسعار مبالغ فيها لاخفاء أمر الجزية.

وبلغ الخلاف بينهم أن عمد بعضهم لاسقاط بعض عن طريق التحالف مع ملوك النصارى، فمنهم من توجه إلى أمير قشتالة، ومنهم من توجه إلى أمير أراجون، ومنهم من توجه إلى أمير ليون.

ومن بين ملوك الطوائف المتوكل بن الأفطس الذي رفض دفع الجزية، فأرسل ألفونسو رسالة تهديد ووعيد شديدة اللهجة إليه بوجوب دفع الجزية أو الغزو، فرد عليه المتوكل بقوله: وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يفرق، ويهدد بجنوده المتوافرة، وأحواله المتظاهرة، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم الاسلام، وأظهر بهم دين نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، أعزة على الكافرين، وفي سبيل الله يجاهدون ولا يخافون، بالتقوى يعرفون، وبالتوبة يتضرعون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة، فباذن الله، وليعلم المؤمنين، وليميز الله الخبيث من الطيب ويعلم المنافقين، أما تعييرك للمسلمين فيما هي أحوالهم، فبالذنوب المركومة،

ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، لعلمت أي مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك تتجرعه، وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك لما أجبر أجدادك على دفع الجزية، حتى أهدى جدك احدى بناته إليه، أما نحن فان قلت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولاصعب نروده، ليس بيننا وبينك إلا السيوف تشهد بحدها رقاب قومك، وجلاد تبصره في ليلك ونهارك، وبالله وملائكته المسومين نتقوى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما تتربصون بنا إلا احدى الحسنيين، نصر عليكم فيا لها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض مما به هددت، وفرج يفرج بما نددت، ويقطع بما أعددت.

فتوجه ألفونسو بجيشه، ومن شاركه من ملوك الأندلس تحت قيادته، وهجم على طليطلة وحاصرها، وكل ملوك الطوائف قالوا لا شأن لنا بها، إلا المتوكل الذي أرسل جيشا لمساندتها، ولكن سقطت طليطلة، وارتكبت مجازر بحق أهلها، ثم تجاوزها النصارى لمهاجمة بني هود حلفائهم الأقربين فسقطت، فكان الطريق يؤدي إلى مملكة المعتمد بن عباد الذي شعر أن الخطر قادم،

وأن ملك النصارى لن يرحمه، وملوك الطوائف لن يسعفوه، ولا مجال للنصرة والفرج إلا بطريق واحدة، وهي الاستعانة بالمرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، والمرابطين وهم مجموعة كبيرة من الجيوش سخروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، فقال ابن المعتمد: يا أبت ان استعنت بهم أخذوا مملكتنا.

فقال المعتمد كلمته الشهيرة: والله لا يسمع عني أبدا أنني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثلما قامت على غيري، تالله انني لأوثر ان أرعى الجمال لسلطان مراكش، على أن أغدو تابعا لملك النصارى وأؤدي له الجزية، والله لئن أرعى الابل في المغرب، خير لي من أن أرعى الخنازير في أوروبا.

واختلفت أوضاع العلماء من مكان لآخر، ومن زمن لآخر، فمنهم من بادر، وغامر، ونصح، ومنهم من آثر السلامة خشية الفتنة والظلم والجور على العباد، ومنهم من هادن وجامل، ومنهم من دارى واختفى، كل يرى المصلحة في اتجاه، فتفرق العلماء، وتفرقت الأمة.

ومما اطلعت عليه هذه التجربة الفريدة لثلة من علماء الأزهر بمصر، رفعوا خطابا إلى السلطان عبدالحميد الثاني، يناشدونه تطبيق الشريعة، وتعظيم حرمات الإسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذلك في 29 رمضان عام 1296هـ، وقبل سقوط الخلافة بـ30 سنة.

قالوا فيها باختصار

إنا نرى ما ابتلي به دين محمد، وعرى الملك الإسلامي من الضعف ، وكثرة التضجر، وإظهار التحسر، وكساد الأسواق، وقلة البركة في الأرزاق وغيرها، واشتداد الأمر، وازدياد القهر، وكثرة العناد والتعب، والشدائد والكرب، إنما هو لتهاون الناس بأوامر الله ونواهيه، فأحلوا معاصيه بالعكوف عليها، والتجاهر بها، وأخلوا أمر الشرع بالتهاون بها، وجعلها نسيا منسيا، واتباع عادات الإفرنج والكفرة، والافتخار بتحصيلها، وترك سنة محمد، حتى فشت المنكرات والمعاصي في الأقطار، وصارت ديدن الأعيان والعوام، والصغار والكبار، ولا يوجد منكرٌ ولا زاجر، وما فشت المعصية في قوم إلا حل بهم الوبال، وشدد عليهم النكال، وأخذوا بقهر السلاسل والأغلال، ورموا بسوء الحال.

وقد جاء في الأثر: إذا خفيت المعاصي لم تضر إلا أصحابها، وإذا ظهرت ضرت العامة، وفي الحديث لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم.

وما اضمحل الدين والدولة، وفسدت الدنيا والآخرة، إلا بالتهاون في أمر الشريعة المحمدية، وعدم المحافظة على حقوقها، وقد قال تعالى: {ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون}، وقال: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}، وقال: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}، أي إن تنصروه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وقتال أعدائه، ينصركم عليهم ويثبت أقدامكم في قتالهم، وإلا يخذلكم وينعكس الأمر، ويزلزل أقدامكم.

وقد ظهرت المعاصي ظهور الشمس في رابعة النهار، وفي جميع البلدان والأقطار، من المنكرات وأنواع الكبائر والمحرمات، التي تكون سببا لعموم البلاء، وكسر شوكة المسلمين وغزوتهم وقهرهم وخراب بلادهم، وتسليط العدو، وتشتيت القلوب، وعدم طاعة العامة إلى الأكابر، والرعية إلى الأمير، ووقوع الاختلاف والفتنة فيما بينهم، وقلة المطر والنبات، والقحط والغلاء، وكثرة الموت والوباء، وعدم قبول الدعوات.

الباب السادس

موقف دول الاسلام من السقوط

الدول الإسلامية والسقوط

سلم أبو عبدالله الصغير غرناطة بعد صلح عقده مع فيرناندو يقتضي بتسليم غرناطة وخروج أبو عبدالله الصغير من الأندلس، لكن سرعان ما نقض هذا الأخير العهد وبدأت محاكم التفتيش في التعذيب والقتل والنفي، وبدأت هنا معاناة أهل الأندلس من المسلمين واليهود فقد كانت محاكم التفتيش تجبرهم على التنصير أو الموت وقد تمسك أهل الأندلس بالإسلام ورفضوا الاندماج مع المجتمع النصراني وحسب الرواية القشتالية الرسمية لم يبد الأندلسيون رغبة في الاندماج في المجتمع النصراني وبقوا في معزل عنه يقومون بشعائرهم الإسلامية ويدافعون عنها بكل تفان وحتى لا يصطدموا بمحاكم التفتيش لجأوا إلى ممارسة التقية فأظهروا النصرانية وأخفوا الإسلام فكانوا يتوضأون, يصلون ويصومون كل ذلك خفية عن أعين الوشاة والمحققين.

يتحدث مول في كتابه عن قرية مويل ، فيصف كيف يصنع سكانها الأندلسيون الخزف ويضيف :قالوا لي إن القرية ليس بها سوى 3 مسيحيين قدامى هم الكاتب الشرعي والقسيس وصاحب الحانة أما الباقون فهم يفضلون الذهاب إلى مكة للحج عن السفر إلى كنيسة سانتياجو في جليقية .

سنة 1601م كتب المطران ربيرا مهندس قرار الطرد تقريرا عن الوضع قدمه إلى الملك وقال فيه:إن الدين الكاثوليكي هو دعامة المملكة الأسبانية وإن الموركسيين لا يعترفون ولا يتقبلون البركة ولا الواجبات الدينية الأخيرة ولا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون النبيذ ولا يعملون شيئا من الأمور التي يقوم بها النصارى ثم يضيف:إننا لا نثق في ولائهم لأنهم مارقون وهذا المروق العام لا يرجع إلى مسألة العقيدة لكنه يرجع إلى العزم الراسخ في أن يبقوا مسلمين كما كان آباؤهم وأجدادهم ويعرف مفتشو العموم أن الموركسيين –بعد أن يحجزوا عامين أو ثلاثة وتشرح لهم العقيدة في كل مناسبة فإنهم يخرجون دون أن يعرفوا كلمة منها والخلاصة أنهم لا يعرفون العقيدة لأنهم لا يريدون معرفتها ولأنهم لا يريدون أن يعملوا شيئا يجعلهم يبدون نصارى وفي تقرير آخر يقول المطران نفسه:إن الموركسيين كفرة متعنتون يستحقون القتل وإن كل وسيلة للرفق بهم فشلت وإن أسبانيا تتعرض من جراء وجودهم فيها إلى أخطار كثيرة وتتكبد في رقابتهم والسهر على حركاتهم وإخماد ثوراتهم كثيرا من الرجال والمال .

وجاء في قرار الطرد الخاص بمسلمي بلنسية: ...قد علمت أنني على مدى سنوات طويلة حاولت تنصير مورسكيي هذه المملكة ومملكة قشتالة كما علمت بقرارات العفو التي صدرت لصالحهم والإجراءات التي اتخذت لتعليمهم ديننا المقدس وقلة الفائدة الناتجة من كل ذلك فقد لاحظنا أنه لم يتنصر أحد بل زاد عنادهم .

موقف ملوك وسلاطين الممالك الإسلامية من سقوط غرناطة

موقف سلاطين بني مرينكان مسلموا الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استنجدوا بملوك المغرب، لا سيما ملوك بني مرين الذين ساروا على نهج المرابطين، والموحدين الذين كانوا ينهضون للتدخل لحماية الأندلس كلما ضاق الأمر بأهلها.

فالسلطان المريني أبو يوسف المنصور 815 هـ/1286م مثلا، عبر إلى الأندلس أربع مرات لإغاثة أهلها ووصلت جيوشه إلى طليطلة، وقرطبة بل إلى مدريد وهي قريبة من آخر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس فساهم بذلك في إنقاذ غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات ملوك قشتالة وأرجون.

لكن رغم الجهود التي بذلها بنو مرين لحماية الأندلس، فإنهم لم يتمكنوا من تحقيق انتصارات ساحــقة، كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك والسبب في ذلك يرجع إلى أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية فقط، بينما كان المرابطون والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله.

ومهما يكن من أمر، فإن بني مرين ساهموا بدور فعال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة من الفوضى والاضطراب، والحروب الداخلية ضد منافسيهم من جهة، وضد جيرانهم من جهة ثانية بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة من تاريخه على وجه الخصوص،التي حالت دون تمكن المرينين، أو الوطاسيين من إنقاذ الأندلس، بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم من الاحتلال الأسباني والبرتغالي.

يقول المؤرخ الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي الذي زار شمال أفريقيا في مطلع القرن السادس عشر، وعاين أوضاع المغرب في هذه الفترة :...ووقع بفاس وأعمالها خطوب، وحروب، وفتن، وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد، وهلاك عباد وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من منابر العــدوة مثل طنجة، وأصيلا وغير ذلك ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا.

ومنذ أن كانت الحواضر الأندلسية تتهاوى أمام ضربات الأسبان ورسائل الاستغاثة تتوالى من أهل الأندلس على ملوك المغرب، لكن هؤلاء كانوا أعجز من أن يقوموا بتقديم عون جاد لمسلمي الأندلس.

يقول المؤرخ الأندلسي المجهول الذي عاصر مأساة غرناطة :إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم، فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مــدد لــنا.

موقف السلاطين الحفصيين

وكما كان أهل الأندلس يستغيثون بملوك المغرب، فإنهم كانوا يلجئون إلى ملوك بني حفص خصوصا عندما لا يجدون من ملوك المغرب آذانا صاغية فمن ذلك أنه عندما سقطت بلنسية، أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدونه ويطلبون منه النجدة والمدد وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأبار القضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　　إن السبيل إلى منجاتها قد درسا

ولم تكن بلنسية وحدها هي التي بايعت أبا زكريا الحفصي، وطلبت منه المدد بل قد بايعه كذلك أهل أشبيلية، وأهل المريـــة إلا أن موقف أبي زكريا الحفصي من استنجاد أهل الأندلس لم يكن يتناسب مع خطورة الوضع ذلك لأنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من إنقاذ الأندلس التي كانت ظروفها تقتضي اقتحام الحفصيين للأندلس، والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف وهو ما لم يكن يقدر عليه أبو زكريا الحفصي لذلك اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالطعام والسلاح والمال.

لكن هذا المدد لم يصل إلى المحاصرين في بلنسية.كما أرسل بمدد آخر أثناء حصار أشبيلية، لكن المدد استولى عليه العدو، كما استولى على أشبيلية فيما بعد.

وأثناء حصار غرناطة، أو بعد سقوطها لم نجد فيما رجعنا إليه من المصادر ما يدل على أن أهل الأندلس استغاثوا بأمراء بني حفص ولعل ذلك راجع إلى أن الدولة الحفصية كانت تعيش أخريات أيامــها، ولم يكن بمقدور أمرائها أن يقدموا أي جهد حقيقي لدعم مسلمي الأندلس.

خصوصا إذا علمنا أن سواحل تونس نفسها لم تنج من الاحتلال الأسباني أضف إلى ذلك أن الجيش الحفصي الذي كان ذات يوم يعتبر من أفضل جيوش شمال أفريقيا، قد تحلل وأصبح عاجزا عن مقاومة أي عدو بل فقد سيطرته حتى على الأعراب الذين كانوا يعيثون فسادا في البوادي، وأطراف المدن، الأمر الذي جعل الملوك الحفصيين يستعينون بالمرتزقة من الجنود الإيطاليين والأسبان والزنوج وغيرهم.

موقف ملوك الدولة الزيانية

لم تكن أحداث الأندلس بعيدة عن اهتمامات ملوك بني زيان ذلك لأن أهل الأندلس كانوا يلجئون إلى الزيانيين مستنجدين بهم عندما تضيق بهم السبل فمن ذلك أنه عندما ضيق الأسبان الخناق على غرناطة أستصرخ ملكها أبو عبد الله أبي حمو الزياني، بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلفيقي مطلعها :

هل من مجيب دعوة المستنجد أم من مجير للغريب المفرد

وبرسالة من إنشاء الوزير لسان ابن الخطيب يذكر فيها أنهم :... لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شـــدة، وضيقا أشد مما هم عليه الآن وذكر أن ملك النصارى جمع لهم جيوشا من سائر الأمم النصرانية وأنهم قاموا بحرق الزروع والمسلمون ليس لهم مغيث يلجأون إليه – بعد الله – سوى إخوانهم في الدين وذكر أنهم كانوا قد أعلموا

المرينيين بهذا الخطر، وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم ومساندة وأنهم لا يملكون غير أنفسهم، وقد بذلوها في سبيل الله وهم ينتظرون نجدتكم فقام أبو حمو الزياني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب والفضة، والخيل، والطعام وبفضل هذا المدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول.

وكما كانت أوضاع الحفصيين، والمرينيين، ثم الوطاسيين لا تؤهلهم للدفاع عن بلادهم، فضلا عن إنقاذ الأندلس، كانت المملكة الزيانية تعيش نفس الظروف المتدهورة لذلك تعذر على ملوكها تقديم أي دعم جاد لأهل غرناطة أو غيرها وسوف يتبين لنا لاحقا أن المملكة الزيانية كانت أضعف من أن تساهم في إنقاذ الأندلس.

موقف سلاطين دولة المماليك في مصر

في أواخر القرن الخامس عشر، أرسل مسلمو غرناطة إلى الملك الأشرف قايتباي 1468-1496 سلطان المماليك فى مصر، يرجونه التدخل لإنقاذهم من ظلم ملوك المسيحيين فاكتفى الأشرف بإرسال وفود إلى البابا، وإلى ملوك أوروبا يذكرهم بأن المسيحيين في دولته يتمتعون بكافة الحريات، بينما إخوته في الدين في مدن أسبانيا يتعرضون لشتى ألوان الاضطهاد وهدد على لسان مبعوثيه بأنه سوف يتبع سياسة المعاملة بالمثل، وهي التنكيل بالمسيحيين إذا لم يكف ملوك أسبانيا عن اضطهاد المســـلمين وطالب بعدم التعرض لهم، ورد ما أخذ من أراضيهم.

لكن الملك فرديناندو، والملكة إيزابيلا لم يريا في مطالب سلطان المماليك وتهديده ما يحملهما على تغيير خطتهما في الوقت الذي كانت فيه قواعد الأندلس تسقط تباعا في أيديهما إلا أنهما بعثا إليه رسالة مجاملة ذكرا فيها :أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين، والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب وأن المسلمين إذا شاءوا الحياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية.

لم يتمكن الباحثون من معرفة مصير هذه الرسالة، كما أنه لا يلاحظ في سياسة مصر المملوكية نحو الرعايا المسيحيين في مصر، أو في القدس ما يدل على أن السلطان المملوكي قد نفذ تهديده.

ويبدو أن السلطان قايتباي لم يتمكن من إغاثة مسلمي الأندلس بسبب انشغاله بتحركات بايزيد ورد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية التي كانت تثور هنا وهناك ومن ثم فإن الجهود المصرية وقفت عند الاكتفاء بالجهود الدبلوماسية

وتركت الأندلس تواجه قدرها بنفسها كرر الأندلسيون استغاثتهم بالملك الأشرف قانصوه الغوري 1501-1516 سلطان مماليك مصر والشام داعين إياه أن يتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين فرديناندو وإيزابيلا لاحترام معاهدة الاستسلام، ووقف أعمال الاضطهاد ضدهم فأرسل الغوري وفدا إلى الملكين يبين لهما أنه سوف يجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسلام، إذا لم تراع الاتفاقات السابقة بينهما وبين المسلمين لكن فقهاء المسلمين عارضوا معاملة الرعايا المسيحيين بالمثل، محتجين بأن الإسلام لا يكره أحدا على الدخول فيه فأرسل إليه الملكان سفيرا أقنعه بأن المسلمين يعاملون معاملة حسنة وأن لهم نفس الحقوق التي يتمتع بها الأسبان وهكذا خابت آمال المسلمين الأندلسيين في تلقي أي دعم أو مدد من سلطان المماليك قانصوه الغوري الذي يبدو أنه كان مشغولا هو الآخر فى حروبه مع العثمانيين، إضافة إلى أنه لا يملك أسطولا قويا يمكنه من مواجهة الأسبان أقعدته عن إغاثة الأندلسيين.

موقف السلطان محمد الفاتح

أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477 أي قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عاما سفارة على إستانبول، وجهوا فيها نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس، وناشدوه التدخل لإنقاذهم لكن كان في حكم المستحيل أن يستجيب السلطان الفاتح لهذه الاستغاثة، لأنه كان هو الآخر مضطرا إلى مواجهة تحالف صليبي ضم البابا سكست الرابع وجنوة، ونابولي، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعددا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداء شديدا للدولة العثمانية.

موقف السلطان بايزيد الثاني 21

ثم استنجد الأندلسيون مرة أخرى بعد وفاة الفاتح بابنه السلطان بايزيد الثاني 1480-1511، إلا أن السلطان بايزيد كانت قد تزاحمت عليه أزمات داخلية وخارجية كثيرة منعته من إغاثة مسلمي الأندلس منها : صراعه مع أخيه جم ، وحربه مع المماليك في أدنة سنة 1485-1491،

بالإضافة إلى الحرب مع ترانسلفانيا، والمجر، والبندقية ثم تكوين تحالف صليبي آخر ضد الدولة العثمانية من طرف البابا يوليوس الثاني، وجمهورية البندقية، والمجر، وفرنسا وما أسفر عن هذا التحالف من حرب أدت إلى تنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم وانتهى حكم السلطان بايزيد بصراع بين أبنائه، أفضى إلى تنحيته عن العرش، ثم موته في ظروف مشبوهة لكن رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في هذه الفترة الحرجة من تاريخها، فإن السلطان بايزيد لم يهمل استغاثة أهل الأندلس، بل حاول أن يقدم لهم ما يستطيعه من أوجه الدعم والمساندة فأرسل إلى البابا رسولا يعلمه بأنه سوف يعامل المسيحيين في إستانبول، وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة ،والتضييق عليهم وبالفعل أرسل أسطولا بحريا بقيادة كمال رئيس إلى الشواطئ الأسبانية سنة 1486 فقام هذا الأخير بإحراق وتخريب السواحل الأسبانية والإيطالية ومالطا ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى تركيا وحسب رواية أخرى لم تثبت صحتها فإن السلطان الحفصي عبد المؤمن بعد نجاح وساطته في عقد صلح بين الدولة العثمانية ودولة المماليك، تم عقد اتفاق آخر على تحالف بين الحفصيين والعثمانيين والمماليك

لدعم مسلمي الأندلس وكان الاتفاق يقضي بأن يرسل العثمانيون أسطولا إلى سواحل إيطاليا تكون مهمته إنهاء سيطرة الأسبان ؛ بينما يستغل الفرصة ويقوم المماليك بإرسال قوات تنطلق من شمال أفريقيا إلى الأندلس لنجدة المسلمين هناك وهكذا بسبب المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، لم يتمكن العثمانيون في عصر بايزيد، وقبل ذلك في عصر الفاتح من إغاثة مسلمي الأندلس، كما أن التهديدات، والغارات التي شنها كمال رئيس على السواحل الأسبانية لم تثن الملكين الأسبانيين عن قرار إنهاء الوجود الإسلامي من أسبانيا المسيحية وبهذه المواقف التي رأيناها يتضح لنا أن سقوط غرناطة وضياع الفردوس المفقود ارتبط بعدد من الأسباب التي كان يمر بها العالم الإسلامي وقتها وضياع غرناطة، وما تبعه من طرد المسلمين كان نتيجة متوقعة في ضوء الأحداث التي مرت بها الأمة.

وثيقة إنجليزية تكشف كيفية سقوط غرناطة

كشف الدكتور خوسيه جوميث سولينيو في المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الأسباني الذي اختتم أخيرا في مدينة مالقة، جنوب أسبانيا، عن عثوره على وثيقة إنجليزية تؤكد أن سقوط غرناطة الإسلامية والحصار الذي عانت منه المدينة كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن ومدى الترف والأبهة التي تميزت بها قصور غرناطة والبلاط الملكي، وأثر الحصار الذي فرضته القوات الأسبانية على أهالي مدينة غرناطة، حتى اضطرهم إلى أكل الكلاب والقطط، ويخلص إلى أن العرب دفعوا ثمنا باهظا للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم في أوروبا ويذكر المؤلف أن عدد القوات التي حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد قوات غرناطة، مخالفا بذلك الرواية المتواترة من أن جيش غرناطة كان كبيرا، وتضيف الوثيقة أن أهالي غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال أعوام الحصار، وقامت القوات الأسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة، مما تسبب في مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة، ولهذا السبب أكلوا الخيول والكلاب والقطط

وتتعرض الوثيقة أيضا للكنوز الهائلة التي حصل عليها الأسبان بعد الفتح ففي مسجد غرناطة كان هناك 300 مصباح من الذهب والفضة وعثر ملك أسبانيا على كميات هائلة من الذهب وبها بنى الكنيسة مكان المسجدويذكر المؤلف الإنجليزي أن الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين إلا بما يستطيع كل واحد منهم أن يحمله على ظهره من حاجات، ما عدا الذهب والفضة والسلاح، لهذا فان الجيش الأسباني وجد عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومناجيق ويشير الدكتور جوميث سولينيو إلى أن الوثيقة تذكر أن افتتاح غرناطة تم عام 1491، والصحيح هو 1492، والسبب هو أن السنة الجديدة لدى الإنجليز كان تبدأ في 25 مارس وليس الأول من شهر يناير ويختتم الدكتور جوميث سولينيو بحثه حول تبعات سقوط غرناطة فيقول ان انهيار الحكم العربي في هذه المدينة كان له صدى كبير وواسع جدا ليس فقط في أسبانيا انما في كل أوروبا، فأقيمت الصلوات في العديد من المناطق.

أهم المصادر والمراجع

- وصف الأندلس وصقلية- محمد بن علي المصري التوزري ابن الشباط.
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب -المراكشي.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب -المقري التلمساني.
- الإسلام في غرب البحر المتوسط -إبراهيم أحمد العدوي.
- دولة الإسلام في الأندلس- محمد عبد الله عنان.
- كتاب الأغاني-أبو الفرج الأصفهاني.
- العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط -عمر فروخ.
- الكامل في التاريخ -ابن الأثير الجزري.
- تاريخ المسلمين في الأندلس- محمد سهيل طقوش .

- تاريخ الدولة الأموية – محمد سهيل طقوش .
- محاضرات في تاريخ المغرب والأندلس– نبيلة حسن محمد .
- تاريخ افتتاح الأندلس –ابن القوطية.
- تاريخ أسبانيا الإسلامية – إﭬاريست ليفي بروﭬنسال ؛ ترجمة: علي عبد الرءوف البمبي .
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي.
- المسلمون في الأندلس– رينهارت دوزي– ترجمة وتحقيق: حسن حبشي.
- الموسوعة العربية المسيحية.
- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس –ريموند شانيدلين.
- فتوح مصر وأخبارها– القرشي المصري؛ تحقيق: محمد الحجيري.
- تاريخ الدولة العربية في أسبانيا– إبراهيم بيضون.

- فجر الأندلس –حسين مؤنس.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر– ابن خلدون.
- فتوح البلدان– البلاذري.
- الروض المعطار في خبر الأقطار– ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري ؛ تحقيق: إحسان عباس .
- تاريخ العرب في الأندلس – خالد الصوفي .
- تاريخ المسلمين في الأندلس– محمد سهيل طقوش.
- الإمامة والسياسة – ابن قتيبة الدينوري.
- دولة الإسلام في الأندلس – محمد عبد الله عنان.
- الحروب الصليبية في الأندلس –عبد المحسن طه رمضان .

- فتوح مصر وأخبارها – ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري؛ تحقيق: محمد الحجيري.
- تاريخ علماء الأندلس– ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد؛ تحقيق: بشار عواد معروف .
- قاموس الأعلام – خير الدين الزركلي.
- طارق بن زياد فاتح الأندلس– موقع قصة الإسلام: إشراف الدكتور راغب السرجاني.
- عدد من الصحف والمجلات العربية والأجنبية منها:
  - مجلة العلوم الاجتماعية –
  - مجلة اتحاد الجامعات العربية –
  - مجلة البحث في التربية وعلم النفس –

- مجلة مؤتة للبحوث والدراسات-
- مجلة رسالة الخليج العربي-
- مجلة تكنولوجيا التعليم مجلة تكنولوجيا التعليم –
- مجلة العلوم التربوية والنفسية –
- مجلة التضامن الإسلامي –
- مجلة بحوث ودراسات في العلوم الاجتماعية –
- مجلة عالم الفكر-
- مجلة البصائر-
- مجلة التربية العلمية –
- مجلة القراءة والمعرفة –

- **مجلة التعاون،**

- **مجلس التعاون لدول الخليج العربي –**

- **مجلة مستقبل التربية العربية.**

- **كتب السنن وشروحها.**

- **مصرع غرناطة- شوقي أبو الخليل.**

- **سقوط الأندلس دروس وعبر- ناصر العمر .**

- **دولة الإسلام في الأندلس- محمد عبد الله عنان.**

الفهرس